الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم –
كلية الأدب و الفنون

قسم الأدب العربي
تخصص: أدب مقارن وعالمي

مذكرة التخرج لنيل درجة الماستر في الأدب العربي

الموسومة بـــ :

صورة العربي في مذكرات الرّحالة الغربيين
الرحالة الفرنسيين – أنموذجا –

من إعداد الطالبة:
✓ تبتي فتيحة

تحت إشراف :
د * يايوش جعفر

السنة الجامعية: 2017م - 2018م

* الشكر *

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاس لَمْ يَشْكُرْ اللَه "

لله الفضل من قبل ومن بعد، فالحمد لله الذي منحني القدرة على انجاز هذا العمل المتواضع، وبعد:

أتوجه بجزيل الشكر وفائق التقدير والإحترام وأسمى معاني العرفان إلى الأستاذ "يايوش جعفر" على مساعدتي في إنجاز هذا العمل، وعلى جم صبره وجهوده ونصائحه الصائبة وأسأل الله أن يجزيه عني خيرا وأن يجعله دخرا لأهل العلم والمعرفة.

كما أتقدم بالشكر إلى كل أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها وإلى كل من ساعدني عن قريب أو بعيد.

* الإهداء *

بسم الله الرّحمان الرّحيم

والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين الحبيب المصطفى بحول الله وقوته

وبعد طول سنين.

أشكر الله عز وجل الذي وفقني لإتمام هذه المذكرة على أحسن الأحوال.

إلى رمز الحب والحنان والوفاء أمي الغالية أطال الله في عمرها، وإلى من علمني الأخلاق والتواضع أبي العزيز الذّي فتح لي باب العلم إلى أختايا العزيزتان، وكل من ساهم معي في إنجاز هذا العمل ولو بكلمة طيبة أو بدعاء وإلى كل من نسيهم قلمي ولم ينساهم قلبي.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد:

يعتبر البحث في حقل الصورة من أهم حقول البحث في الأدب المقارن كونه يحيلنا على أفضلية لا حصر لها في مكاشفة تصورات الآخر بشأن الأناء مع الرغبة في تصحيح الطروحات المغلوطة، من هذا المنطلق راحت البحوث في حقل الصورائية تفتك قيمتها وبعدها الإستراتيجي في توجيه العلاقات بين الشعوب في ضوء آدابها ومنجزاتها كما تسهم في إغناء شخصية الإنسان، فيزداد فهما لذاته وللآخر معا. كما تستطيع أن تسهم في توسيع افق الكتابة والتفكير والحلم، مما يجعل منظومة المفاهيم التي يتبناها الإنسان أقل صلابة ومرونة وحيوية، مما يؤدي إلى نضج الشخصية الفردية على المستوى الإنساني والمعرفي، فيتم التعرف على الذات والآخر في الوقت نفسه، هذا على المستوى الفردي، أما على المستوى الجماعي فتفيد دراسة صورة الآخر تصريف الانفعالات المكبوتة تجاه الآخر، وفهم وتحليل أوهام المجتمع الكامنة في أعماقه، فتعري الذات والآخر معا وتساهم في إزالة سوء التفاهم الذي ينزع إلى إعلاء شأن (الأنا) وتحقير الآخر، كي تؤسس لعلاقات معافاة من الأوهام التي هي نتيجة للتشويه السلبي والإيجابي لصورة الآخر.

لذلك ارتأينا في هذا البحث إلى تقديم دراسة تتمحور حول صورة العربي في مخيال الغربي في سياق تحري المنهجية المعمول بها في دراسة الصورة من منظور الأدب المقارن، ذلك أنها قناة من قنوات التأثير على الصعيد العالمي.

وهنا في هذه الدراسة أخذنا صورة العربي في مذكرات الرحالة الغربيين وتسليط الضوء على فرنسا كنموذج من خلال فرز وتمحيص الأعمال الأدبية والفكرية التي أنتجها هؤلاء الرحالة بطرح جملة من الإشكالات، ماذا نعني بالصورة في الأدب المقارن؟ وما هي أنواعها ونشأتها؟ أما الإشكاليتين الأساسيتين اللتان بني عليهما هذا البحث: ما هي الصورة الحقيقية للعربي عند الآخر؟ وما هي الصورة التي شكلها الرحالة الفرنسيين للعرب آنذاك؟

أما الأسباب التي قادتنا غلى اختيار هذا الموضوع هو أنه يطرح فكرة جد هامة ألا وهي النظرة التي ينظر إليها الأوربي إلينا والصورة التي استنبطها هؤلاء الرحالة الغربيين ورغبة المتلقي في معرفة هذه الصورة وخصوصا المتلقي العربي، ولأن الصورة لها هدف واضح في تشكيل الفعل الثقافي في سياق ثنائية الأنا والآخر، وكان تحليلنا لهذه الإشكاليات، والبحث في إجابة مقنعة لها وقد قسمنا بحثنا هذا إلى ثلاث فصول مع مدخل ومقدمة وخاتمة ووقفنا في الفصل الأول عند مفهوم أدب الرحلة، ونشأتها عند العرب، وأنواع هذه الرحلات، أما فيما يخص الفصل الثاني فيتناول صورة العربي في مرآة الآخر أخذنا فيه صورة الآخرين، وأخذنا الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، وصورة العربي بين فرانس كافكا وألبير كامو، وتطرقنا إلى الدراسات الاستشراقية، أما العنصر الأخير هو دراسة صورة الآخر في الأدب العربي، والصورة بين الأنا والآخر، أما الفصل الثالث فيتضمن صورة العرب عند الرحالة الفرنسيين حيث أخذنا بعض الرحلات التي قام بها الفرنسيون في بلاد المغرب واستعنا ببعض المجلات من وكالة

الصحافة العربية، وقد اقتضت طبيعة البحث الاعتماد على منهجين التاريخي والتحليلي اللذان يقتضيان جمع الحقائق التاريخية وتحليل الأعمال الأدبية.

ويضاف إلى ما تقدمه خصوصية البحث في حقل الصورائية وما تنطوي عليه من صعوبات، تتصل بضبط المادة وتصنيفها وتحليلها، وقلة المراجع في هذا الحقل خاصة الكتب المترجمة، ولأن البحث يتحدد بطبيعة مصادره ومراجعه المتصلة اتصالا وثيقا بموضوعه، كانت هذه المرحلة عتبة أخرى كان لابد من اجتيازها وقد استغرق ذلك فترة من الوقت قضيناها في التنقل إلى عدد من المكتبات، والاطلاع على دراسات أكاديمية مسابقة، و من هذه المصادر والمراجع المعتمد عليها في هذا البحث "الأدب المقارن" يوسف بكار وخليل الشيخ، والأدب العام المقارن "لدانييل هنري باجو، والجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان "لأبو العيد دودو".

وقد حاولت الاجتهاد في سبيل الله إنجاز هذه الدراسة قدر المستطاع، إلا أننا لا ندعي أن دراستنا المتواضعة قد استطاعت تسجيل إسهام حقيقي في تقديم إجابات لمختلف الإشكالات التي طرحنها، وأخذنا على عاتقنا من بداية البحث إثارة جملة من القضايا والإشكاليات كمحاولة لفتح باب النقاش

ويرجع الفضل في اكتمال لبنات هذا البحث بعد فضل الله سبحانه وتعالى إلى الأستاذ المشرف "جعفر يايوش الذي منحنا من وقته وجهده، فكان نعم المشرق والناصح والموجه فله من جزيل الشكر وجميل العرفان راجين من الله أن يحفظ فضله. كما لا يفوتنا في الأخير أن أتوجه بجزيل الشكر إلى السادة الأساتذة أعضاء لجنة

المناقشة التي ستقوم بمهمة القراءة والنقد والتمحيص في هذا العمل، وتسديد هفواته، وتقويم ما اعتدى ثناياه من الآن على أمل أن تكون قد أصبنا فيه الحقيقة التي ناشدناها منذ البداية اشتغالنا على هذا العمل الذي نتمنى أن يكون ولو لبنة صغيرة تضاف إلى رصيد مكتبتنا، ومرجعا يعود إليه طلبة العلم في المستقبل.

مدخل

يقول عز وجل: ﴿ ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [1]

لقد خلق الله عز وجل عباده وميّز بينهم إذ نجده ز وجل يصرّح بذلك تصريحا واضحا، فالاختلاف بين الأمم يكون في أخلاقها وطبائعها، كما تختلف في مناهي الحياة كلها، ومن هنا فإنّ قليات الأمم تختلف اختلافا واضحا في نفسها، وسلوكها، فإذا أردنا التّعمق في الآداب القومية المختلفة نجد أنّ كل أدب يحتوي على نوعين من الصّور.

. نوع يتعلق بصورة كل شعب في أدبه القومي.

. نوع يتعلق بصورة الشعوب والأمم الأخرى إلى الآداب الأجنبية.

وهذه الدّراسة بطبيعتها تتخطى حدود الآداب القومية فقد لاقت اهتماما كبيرا من قبل علماء الأدب المقارن في وقت مفكر. فقد وضعوها كمبحث ضمن ميادين البحوث المقارنة وقد أطلقوا عليها تسمية "الصّورولوجيا" لكن لابد أن نقف عند نقطة جدّ هامة ألا وهي طريقة تناول الصور، إذ أخذنا مثالا أي عمل أدبي تناول فيه الأديب قضايا مجتمعة أو حضارة بلاده مثلا، فإنّنا نجده يختلف عن عمل أدبي تناول فيه الأديب قضايا مجتمعه أو حضارة بلاده مثالا فإننا نجده يختلف عن عمل أدبي تناول فيه نفس القضايا أو نفس الحضارة من خلال أديب أجنبي.[2]

[1] سورة الجاثية، الآية 28.

[2] عبود عبده، الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، مطبعة المدينة، سوريا، 1997م/ 1998م، ص371.

ونأخذ على سبيل المثال ما قدمه المستشرقون حول الحضارة العربية الإسلامية زيفوا الحقائق حول العروبة والإسلام ونأخذ من بين هؤلاء المستشرقي الأمريكي "**واشنطن إيرق نج**" الذّي حاول وضع دراسات حول سيرة النّبي وركزّ على قضية الجبرية في الإسلام.

واعتبرها نبذا أساسيا من نبوذ العقيدة الإسلامية، واعتبر الرّسول أنّه قد فرضها لإنجاح حروبه مع العدد وذلك يوم أقنع المقاتلين أن مصيرهم قد أدنى قد أقره الله سبحانه وتعالى مسبقا فهو يدفعهم إلى ساحة المعركة دون أدنى خوف من الموت طالما أنهم يستشهدون ويفوزون بالجنة [1] ومن هنا نلمح تلك الصّورة العدائية التّي قدمها أدب قومي ضد شعب آخر قد ظهر كثيرا من القرون الوسطى نظيف إلى المثال السابق صورة العرب في الأدب الصّهيوني هذا من الجانب السّلبي.

أما الجانب الإيجابي يتمثل في تلك الصّورة الإيجابية التّي يرسمها أدب قومي معين لأمة أجنبية مثل هذه الصّور، صورة ألمانيا النّازية في الرّأي العام العربي، فكان الأديب في بعض الأحيان أعماله بين أفكاره وأرائه سواء بالسّلب أو بالإيجاب لصورة أي بلد أجنبي من هذا المنطلق ظهرت دراسات جديدة تهتم بهذا المجال لتزيح الغموض وتوضح الأمور.[2]

فظهرت ما تسمى بالصّورولوجيا أو الصّورائية كحقل جديد على يد علماء الأدب المقارن وضمّه إلى ميادين البحوث المقارنة، وقد شهد هذا النّوع الأبحاث المقارنة.

---

[1] هيكل حسين محمد: جياة محمد، ط: 13، مكتبة النّهضة المصرية 1968، ص549 . 550.

[2] ناجي عويجان، تطور صورة الشّرق في الأدب الانجليزي، ترجمة تالاصباغ، المنظمة العربية للتّرجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص201.

ومن هنا نستطيع القول أنّ الصّورة التّي أنتجتها الآداب الأجنبية بمثابة تخيير وتزييف لحقائق الشّعوب والأمم والحضارات، مما ولد سوء فهم بين الدّول، والمجتمعات وهذه التّي طرحت حول العلاقة الرّابطة بين الصّورائية ودراسة الأدب وعن قدراتها حول معالجة وفهم الأعمال الأدبية، وهذه الدّراسة تقيد الأبحاث السياسية، والاجتماعية وكذا الدّراسات الصّورولوجية أن تميز نفسها من استقصاء الصّور، والقوالب الجامدة التي يجربها علماء النّفس، والاجتماع والسّياسة وترتكز على الجوانب الأدبية لصور الشّعوب الأجنبية في الآداب القومية.[1]

إنّ دراسة الصّورة لم تقتصر على الأدب بل شملت حقولا معرفية مختلفة أيضا، لهذا كانت مثل أية دراسة في مجال العلوم الإنسانية من بعض الانحرافات، فقد ركزت بعض الدّراسات اهتماهما على جماليات النّص الأدبية. دون الانتباه للتّحليل الثّقافي التّاريخي في حين وجدنا دراسات أخرى تسلط الضّوء على الجوانب التّاريخية والثّقافية وتهمل الجانب الجمالي للأدب، حتى وجدنا بعض الدّراسات قد تحولت إلى احصاءات اختزالية لصورة الأجنبي فسيطرت عليها الآلية والسّرعة، ممّا أبعدها عن روح الفن وعمق المعرفة العلمية.[2]

[1] عبود عبده، الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية، ص371.

[2] ماجد حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. سوريا. 2000. ص239.

أ) تعريف مصطلح دراسة الصّورة الأدبية:

تعد دراسة الصورة الأدبية (أو الصّورولوجيا imagologie) أحد فروع الأدب المقارن، وهي تحتاج مثله إلى أدوات النّاقد من معرفة بالعلوم الانسانية (التاريخ، علم الاجتماع، علم النّفس...) والمناهج النّقدية الحديثة كما تحتاج إلى مؤهلات ذاتية كالذّوق والحساسية وغير ذلك من أدوات تساعد على تلمس الجمال.

وقد شهد هذا الجمال ازدهارا ملحوظا في هذه الأيام بسبب رغبة بعض المثقفين في سيادة مناخ من التّعايش السّلمي، إذ أنّهم يبحثون عن دور فاعل في الحياة كي يقاومو لغة العداء التّي قد يشيعها المتعصبون والسياسيون.[1]

وقد لوحظ أنّ الصّور التي تقدمها الآداب القومية للشعوب الأخرى تشكل مصدرا أساسيا من مصادر سوء التّفاهم بين الأمم والدّول والثّقافات سواء كان هذا إيجابيا أمر سلبيا، ونعني بسوء الفهم السّلبي ذلك النّوع النّاجم عن الصّورة العدائية التّي يقدمها أدب قومي ما عن شعب آخر أو شعوب أخرى...[2]

إنّ المقصود بسوء الفهم هذا تقديم صورة غير موضوعية للذّات وللآخر في الوقت نفسه، مع أن الذّات تدرك نفسها حين تتعامل مع الآخر إذ تتشكل ويعاد تشكيلها في المواجهة مع الآخر، لذلك فإن أي تشويه في النّظرة للآخر كامن في الذّات، وكما يرى **ألان**

[1] . محمد زكي العشماوي. دراسات في النّقد المسرحي والأدب المقارن، دار الشّروق، القاهرة، دط، 1994، ص 39.

[2] ماجد حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص. 241

تورين في كتابه "نقد الحداثة" ليس هناك من خبرة أكثر أهمية من العلاقة مع الآخر إذ يتشكل الطّرفان كذوات، وحين يتم الاعتراف بالآخر (أي بكونه ذاتا) تندفع الذّات إلى المشاركة في جهود الآخر من أجل التّحرر من العراقيل التي تمنعه من الحياة الانسانية الكريمة، وهذه الغاية لا تكون فردية فقط، لأنّ حياة الأنسان لا تزدهر إلاّ إذا عاش حياة اجتماعية متفتحة على الآخر مثلما هي متفتحة على الذّات. وبالتالي تمنعها من التّفاعل مع الآخر، بل قد تصوّره مدمرا لكينونتها، فيكون رد فعلها تدميرا للآخر أو تشويها وإقصاء له.[1]

إذ كل صورة لابد أن تنشأ عن وعي مهما كان صغيرا، بالأنا مقابل الآخر، وهي تعبير أدبي مستمد من نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانيين مختلفين (أي المكان الذّي تنشأ فيه الصّورة، أي بلد النّاظر والمكان الذّي تقدمه الصورة، أي بلد المنظور إليه وكثيرا مانجد دلالة توحي بالتباعد بين (الأنا) و(الأخر) فتؤسس لسوء الفهم، وهكذا يمكننا أن نعد الصّورة جزءا من التّاريخ بالمعنى الوقائعي والسّياسي، أي جزءا من الخيال الاجتماعي والفضاء الثّقافي أو الإيديولوجي الذّي تقع ضمنه، فتعرف على الهوية القومية، كما تتعرف من خلال نظرتها للآخر متى تقف مواجهة له؟ هل الإعتقاد الدّيني والمواقف السّياسية والاقتصادية دور في العداء؟ هل تعاليم الدّين هي المسؤولة عن هذا العداء أم تسييس الدّين؟ متى يكون الآخر منا قضى للأنا، ومتى يكون ندا مكملا لها؟[2]

[1] محمد زكي العشماوي. دراسات في النّقد المسرحي والأدب المقارن، ص 40.

[2] ماجد حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص 242.

كما تقدم لنا دراسة صورة الآخر أثر العلاقة التّاريخية بين الأنا والآخر في رسم ملامح مشوهة للذّات والآخر ! أي تبرز أثر العلاقات العدائية في تشكيل صورة غير انسانية، فتنزه الذّات وتحقر الآخر ! ونحن اليوم أحوج ما نكون لدراسة الصّورة التّي رسمها الأدب الحديث للآخر، دون أن نغفل عن دراسة صورة الأنا في أدب الآخر.[1]

أعتقد أنّنا أحوج ما نكون إلى توسيع مصطلح الأخر، ليس فقط على الصّعيد (شرق وغرب) بل على الصّعيد الإنساني (امرأة، عبد) أيضا.

ب)نشأة الصّورائية:

إنّ البدايات الأولى لنشأة الصّورائية تعود إلى النّصف الأول من القرن 19 عندما قامت الأدبية الفرنسية الأصل "**مدام دي ستال**" بزيارة دامت وقت طويلا إلى ألمانيا. وقد تزامن ذلك وتصاعد الصّراع بين الشّعبين الفرنسي والألماني.[2]

فالفرنسيون يصرحون أن المجتمع الألماني يتميز بالبداءة سواء في اللغة المستعملة أو في الرّصيد الثّقافي حيث أقرّوا أنّه لا وجود لأي آثار أدبية أو ثقافية تستدعي العناية والاهتمام. وهذا اللّفظ من مكانتهم وتحفيزهم إذ أنّ السبب واضح ألا وهو الاستعمار بكل سهولة في حين **مدام دي ستال،** رأت أنّ الشّعب الألماني يمتاز بكل الصّفات الجميلة المعاكسة لكل ما دعاه الفرنسيون. وقد جاءت الكتابة الفرنسية بمناقب الشعب الألماني من

[1] محمد زكي العشماوي. دراسات في النّقد المسرحي والأدب المقارن، ص 41.

[2] دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السّيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، دت ص. 89.

طيبة واستقامة وصدق وبجمال طبيعة ألمانيا ولا سيما وادي نهر الراين والغابة السّوداء وبغنى الأدب الألماني والمستوى الرّفيع الذّي بلغته الفلسفة الألمانية.[1]

فسعت **مدام دي ستال Madame De Stal** إلى تصحيح ما في أذهان الفرنسيين من صور مشوهة عن الألمان وبلادهم وثقافتهم وكانت محصلة الرّحلة كتابا عنونته ب " عن ألمانيا" ويعد هذا الكتاب بما يعرف بالدّراسة الأدبية للآخر "الصّورولوجيا".

اشتهرت **Madame De Stal** بسعة إطلاعه على الآداب الأجنبية عامة والأدب الألماني خاصة، وانتقدت أولئك الذّين يحتقرون الآداب الأجنبية ولا يهتمون بدراستها ودعت إلى دراسة الأداب في لغاتها الأصلية.[2]

استشهدت بالآداب الأجنبية لتبين وجوه تشابهها ووجوه اختلافها، لعب مؤلفها "عن ألمانيا" "**De M'Allemagne**" دورا هاما في مصير الدّراسات المقارنة وقد ثبت فيه أفكار جديدة استقتها من الأدب الألماني.

. من أهم الدّراسات في هذا المجال "علم الصّورة".

- ✓ رسالة "**ماريو فرانسوا غويار**" "**Mario François Guyard**" صورة بريطانيا العظمى في الرّواية الفرنسية 1914 . 1940.
- ✓ رسالة "**ميشيل كادو**"صورة روسيا في الحياة العقلية الفرنسية 1839 – 1856.

[1] دانيال هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص89.

[2] المرجع نفسه، ص 90.

✓ رسالة "أندري مونشو" "Andrio Moncho" ألمانيا أمام الآداب الفرنسية من عام 1814 . 1835.[1]

ج) أنواع الصّورة:

أ. الصّورة السّلبية:

إنّ غياب الموضوعية في رصد الصّور والتّعبير عنها عموما هو ما جعل الأديب أو الرّحلة أو المستشرق يقدم صورة سلبية عن بلد ما على الرّغم من أنّه قد زاره، وتعرف عليه عن قرب، ولذلك نجد **إدوارد سعيد** في كتابه الشّهير "الاستشراق" وهو يوضح مفهوم الشّرق عند المستشرقين يقول " أن الشرق الّي يتحدث عنه المستشرقون غير موجود، فهو شرق من صنع المخيلة الغربية. وإذا كان الحديث عن سلبية هذه الصّورة معتذرا فإنّ حديثنا عن الرّحلات التّي قام بها الغربيون إلى الوطن العربي سيفضي إلى بناء ذلك التّصور ولو بشكل جزئي".[2]

ومن بين الرّحلات التّي ساهمت في تشكيل صورة سلبية عن الجزائر وساندت الاستعمار الفرنسي وأيدت نفوذهم وسيايتهم بدعوى نشر الحضارة والتّقدم في الجزائر وهي كثيرة مثل:

1. كتاب "الجزائر على حقيقتها" للمؤلف "**م . دستوت**" **(M. DSTOTT)**.

[1] ريمون طحان، الأدب المقارن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1972، ص 23.

[2] يوسف بكار . خليل الشّيخ. الأدب المقارن، الشّركة العربية المتحدة للتّسويق والتّوريدات بالتّعاون جامعة القدس المفتوحة، القاهرة، مصر، 2009، ص 211.

2. كتاب "إفريقيا المستنيرة" للمؤلف "**هـ. ت كيني**" (**H. T Keeny**).

3. كتاب "الجزائر اليوم" للرّائد "**قوردون كاسلي**" (**Gordon Gasly**).

4. كتاب "بلد القراصنة" للمؤلف "**إيكسان فليدنج**" (**Xan Fielding**).[1]

ولذلك نقول أن دراسة المقارن لهذه الصّورة السّلبية لها قيمتها، حيث تكشف عن تصورات الأمم بشأن بعضها البعض، حيث تكون محكومة بأفكار مسبقة أو سباقات إيديولوجية وسياسية وحضارية معينة، فلكي نصحح هذه التّصورات لابدّ من دراستها وتحليلها.[2]

ب. الصّورة الإيجابية:

إنّ الرّحلة إلى باريس من روافد احتكاك العرب بالغرب في العصر الحديث، لذلك نجد تلك الصّورة الإيجابية التّي رسمها الرّحالة العرب لهذه المدينة في أدبهم حيث امتازت بالإعجاب والنّظر إلى طبيعة هذه المدينة ووصفهم لها.[3]

ونذكر من هذه الرحلات رحلة "**الطّهطاوي**" الذّي أقام بباريس في الفترة مابين (1826 . 1831) وسجل تفاصيل هذه الإقامة في كتابة "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" وكذلك رحلة "باريس" والقارئ لهذه الكتب وغيرها قد اتجه وجهة إيجابية بكل ما تحمله الكلمة من معاني، وتتجلى هذه الإيجابية من خلال تشبيه هذه المدينة بالجنة وربطها بفكرة التّطور.

[1] ريمون طحان، الأدب المقارن، دار الكتاب اللبناني ، ص24.

[2] يوسف بكار . خليل الشّيخ. الأدب المقارن ص 212.

[3] المرجع نفسه، ص 25.

"وإذا كان الرّبط بين باريس وبين الجنة، فإنّ الرّبط بين باريس وفكرة التّقدم الفلسفي لها أبعاد، وقد تجلت هذه الفكرة في حديث "**طه حسين**" عن باريس في كتابه "الأيام" وفي "من بعيد" مثلما تحدث عنها في "زهرة العمر" و "**زكي مبارك**" في ذكرياته وبدت باريس في هذه الكتب نقطة الانطلاق حول مشروع حضاري يتفيأ للتّقدم وتكون باريس فيه ما تجسده من مبادئ فكرية نموذجا يحتذى به"[1]

أمّا إذا تكلمنا عن الرحلات أو الكتابات الغربية التّي كتبت بإيجاب عن الجزائر أو تلك التّي كتبها الغربيون بفهم ووعي كبيرين مثل:

1. بوابة الصّحراء بسكرة للمؤلف "**س. هـ. ليدر**".
2. جولات في الجزائر العاصمة وما حولها للمؤلف "**ل. ج. سيقوين**".
3. الصّحراء ملاذا للمؤلفة "**إيديت هالفورد نيلسون**" التّي تحدثت عن ثورة الأوراس عام 1916م.

وبغض النّظر عن سلبية الصّورة أو ايجابياتها فإنّ تحليل عناصرها، والبحث في ملابساتها وهو ما تحمله من دلالات ومعاني تتخطى حدود النّص المكتوب. لذلك نجدها تعبر عن تجربة شخصية للواصف مع مكان انتمائه الإيديولوجي قبل أي شيء آخر.[2]

[1] يوسف بكار وخليل الشّيخ. الأدب المقارن. ص 212.

[2] المرجع نفسه . ص . 213.

الفصل الأول

الأدب والرحلة

- مفهوم الرّحلة:

يعد أدب الرّحلة من الأنواع التي اتسمت بمميزاتها وطابعها الخاص، وذلك أنّ مضمونها يتعرض لمختلف نواحي الحياة السّياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، الثّقافية والدّينية... غير أنّ الرحلة عرفت:

أ- لغة:

جاء في لسان العرب "**لابن منظور**" إن الرّحلة مركب للبعير والناقة وجمعه . أَرْحُلٌ، ورحَالٌ الرّحْلُ في غير هذا منزل الرجل ومسكنه، وبيته، وانتهينا إلى رِحَالِنَا أي منازلنا، ورَحَلَ البعير يَرْحَلُهُ فهو مرحول ورحيلٌ.[1]

وفي معجم **مقاييس اللغة (لابن فارس)**: رَحَلَ: الرّاء والحاء واللاّم[2] أصل واحد يدل على مضي في سفار ويقال: رحل . يرحل . رحلة...، والرّحلة الارتحال... ورحلة إ أضعنه من مكانه ومعنى هذا أنّ كلمة اجتمعت فيها هذه الحروف لم يخرج معناها عن الحركة، والسير والانتقال ونجد في كلامه هذا اتفاقا مع ما قاله "**ابن منظور**" بل هو تكرار له، ويشير "**الفيروزبادي**" في "قاموس المحيط" إلى دلالة الرّحلة بقوله، ارتحل البعير سار ومضى والقوم عن المكان وانتقلوا.[3]

ومن هنا نستكشف أن دلالة رحل في لغة العرب تلخصت في السّير والانتقال والحركة.

---

[1] ابن منظور دار العرب . ج11 . دار صقر . بيروت، ط، 1994، 3، ص276.

[2] ابن فارس (أحمد) مقاييس اللغة . المجلد الثاني، دار الجيل . بيروت. د . ت ص 446.

[3] الفيروز ابادي القاموس المحيط. ج . 3. دار الإحياء للكتب العربية بيروت. ط. 1985. 394.

وتجدر الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم حفل بالعديد من الأمثلة التّي تشير إلى هذه المعاني على الرّغم من عدم ورود لفظ رحلة فيه إلاّ قوله عز وجل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [1]

ففي هذه السّورة ارتبطت هذه الرّحلة بالتجارة التّي كان يقوم بها أهل مكة صيفا إلى اليمن وشتاءا إلى الشّام.

كما ورد لفظ "رحل" في الكتاب المنزه ولكن بمعنى البعير (الرّحلة) في قوله عز وجل وعلا: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ [2]

ب- إصطلاحا:

تعددت مفاهيم الرّحلة في ال إصطلاح إلا أنّها تصب كلها في قالب واحد يمكن القول بأنّه فن التّعبير عن مشاعرختلج في نفس الأدب المغترب في كل ما يراه ويعايشه يحكي من خلاله أحداث سفر ومشاهده وعاشه بأسلوب أدبي شائق يغري القارئ بمواصلة القراءة

[1] سورة قريش الآية 1، 2، 3،4،4.

[2] سورة يوسف الآية 70.

فالرّحلة إذا هي انتقال من مكان إلى آخر، وهذا هو المعنى الأول، أمّا المعنى الثاني هو أن الرّحلة كتابة خطاب وهو المعنى الذّي يهم الباحثين ويشغلهم.[1]

[1] محمد حالمي في الخطاب الرحلي، مقاولة منشورة إلكترونيا.

- مفهوم أدب الرّحلة:

بعد أن حددنا مفهوم أدب الرّحلة في الاستعمال اللغوي والاصطلاحي، سنحاول تحديد مفهوم أدب الرّحلة باعتباره فنا من فنون النّثر.

وهذا النّوع من النّثر لم يأخذ في بداية الأمر اسم رحلة وعناوين بعض المؤلفات دليل على ذلك مثل (مروج الذّهب تحقيق ما الهند من مقولة في العقل أو مرذولة...)

أمّا لفظ رحلة فأول من أطلقها على مؤلفه فهو بن "**جبير**" ولقد ورد ذلك في مقدمة الرّحلة المغربية لـ "**سميرة أساعد**" الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري **للعبدري**، يقول: المحقق كلمة رحلة ليست من ابتكار "**العبدري**"، فأول من سمى هذا النّوع من الكتابة "رحلة" هو "**أحمد بن جبير المتوفي**" سنة 214هـ فهو إذا مؤسس "فن الرّحلة" [1]

وتقف الباحثة "**نوال عبد الرّحمان الشّوابكة**" موقفا مماثلا في تحديدها لهذا الفن بقولها: "أدب الرّحلات فن تغمره الحياة، يزخر بالتّجارب الحية، الحركة والانتقال من مكان لآخر وهو بذلك يلتقي يالسّيرة ذلك أنّ كلمة "سار" تدل على المسير والانتقال وتومئ بطول الطّريق وقطع المسافات وتعدد المراحل وهذا يتفق مع الكتابات التّي تؤرخ لسيرة الانسان منذ طفولته إلى شيخوخته"[2]

[1] محمود العبدري البلنسي، الرّحلة المغربية أحمد بن جدّو مطبعة البعث نشر كلية الآداب الجزائرية قسنطينة ط1 ص2.

[2] نوال عبد الرحمان الشّوبكة . الرّحلات الأندلسية والغربية حتى نهاية القرن 9 هـ دار المأمون للنّشر والتّوزيع . عمان . مطبعة 2008 صفحة 243.

ويبدو من خلال هذا أنّ الباحثة تحاول أن تبرز مواطن الاختلاف والتّشابه بين أدب الرّحلات والسّيرة الذّاتية على اعتبار أنّ الرّحلات تطلعنا على سير أصحابها وتكشف عن مواهبهم ودوافعهم للقيام بتلك الرّحلات.

هذا كله يقودنا إلى صعوبة القبض على تعريف يجمع في حده رغم الخصوصيات والتّنويعات في النّصوص الرّحيلية العربية.

ففي معجم مصطلحات الأدب لـ"**مجدي وهبة**" "لا نلاحظ أي تعريف للرّحلة فقد اكتفى صاحبه بإشارة مقتضية للرّحلة الخيالية".[1]

بالمقابل نجد "**جبور عبد النّور**" في المعجم الأدبي يتحدث عن الرّحلة دون إيجاد تعريف خاص بها بل اكتفى بكلام عابر يقول: "تشل الرّحلة في الأدب منزلة رفيعة، وأصبحت من الفنون الشّائعة في معظم بلدان العالم الثالث، ثم يشير إلى أنّ للمغامرة الاكتشافية والعواطف المحركة للبشر وتابعة أيضا من أنواع الشّخصيات التّي تبررها للقارئ"[2]

في الوقت الذّي اكتفى فيه "**سعيد علّوش**" بذلك في المجال الذّي تنشئ إليه الرّحلة وذكر أعلامها وميادينها يقول «أدب الرّحلة هو أدب يدخله في درس الصّورولوجيا أي دراسة صورة شعب عند شعب آخر»[3]

[1] مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب مكتبة لبنان . بيروت 1974 ص 165.

[2] جبور عبد النّور . المعجم الأدبي بدار العلم للملايين بيروت . ط2، 1986 ص121.

[3] نفس المصدر ص 122.

وقد سارت الموسوعة العالمية Emcyclopédie universels على النّهج ذاته فاكتفت بالإشارة إلى أن الخصيصة الأساسية للرحلة هي التّنوع دون المظاهر المختلفة، وأنالرّحلة تدخل ضمن السّيرة لأنّ المؤلف والرّاوي والرّحالة هم شخص واحد.[1]

فيما عرّف معجم المصطلحات الأدبية أدب الرّحلة بأنّه "مجموعة الآثار لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمنظر الطّبيعية التّي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته أو يجمع بين كل هذا في آن واحد" "وقد اشترط الدّكتور "**انجيل بطرس**" من خلال تحديد مفهوم أدب الرّحلات أن يتحقق في وصف الرّحالة وتسجيل لمشاهداته وانطباعاته الواقعية والدّقة وجمال الأسلوب"[2]

فيقول ذات الأخير «وهناك صفتان عامتان لابد من توافرها في أدب الرّحلات وهما:

أولا:أن يكون من يكتب عن الرّحلات رحالا بطبعه محبًا للرّحلات.

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذّي يجعل وصفه للرّحلة بعكس الرّحلة والرّغبة الشّديدة التّي تمتلكه للقيام بها، ولعل خير أمثلة أدب الرّحلات "هو ما يكشف شخصية الرّحال بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التّي ينتقل بينهما والنّاس الذّي يلتقي بهم، فإذا كان الوسط الذّهبي هذا، ففي أحد طرفيه توجد الأمثلة التّي تقع فيها شخصية الرّحالة في مركز الانتباه، وفي الطّرف الآخر.[3]

[1] سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، المكتبة الجامعية الدّار البيضاء 1984 ص7.

[2] المرجع السّابق.

[3] المرجع نفسه.

- نشأة أدب الرحلة عند العرب:

لقد ارتأى الباحث "عمر بن قينة" إلا أن هذا الفن بدأ بأخذ مكانة معتبرة في الأدب العربي بل إنّه أصبح ينافس الفنون الأدبية الأخرى لطابعه الموسوعي واهتمامه بحياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم ونظم الحكم وأسايب العيش، كما مضى ليكتسب أسلوبا أدبيا يعانق فيه الواقع الخيال[1].

ومعنى هذا أن أدب الرحلة بين الحقائق الواقعية والخيال أي أنّه يقدم الحقائق كما هي في الواقع، كما يجنح إلى الخيال وهو الذّي يتبدى في توظيف الرحالة للأساليب الفنية التي تظهر حينها يضمن الرحالة رحلته بعضا من الأشعار والمقامات.

ولا مندوحة لنا من الأعراف والإقرار بأن جل المصادر والأبحاث التاريخية تجمع على أن الفن بدأ يأخذ طابعا جديا وعلميا أكثر مع بداية القرن الثالث الهجري (التاسع للميلاد) على حد تعبير "**شوقي ضيف**"[2] وبهذا عدّ القرن الثالث بداية التأريخ للرحلات العربية كفن مدّون، وهو ما أكد عليه الباحث "**شعيب حليفي**" في قوله: يمكن اعتبار القرن التاسع ميلادي بداية التأريخ للرحلات العربية المكتوبة مع اتساع دائرة التأليف والتصنيف ومن أبرز الكتب المدونة في الفترة كتاب "المسالك والممالك" لـ"**ابن خردذابة**" وكتاب "البلدان" لـ"**أبي العباسي أحمد اليعقوبي**" الذّي عكس حبه للترحال ودرايته الواسعة بحب الأوطان، وكتاب

[1] بن قينة (عمر): الخطاب القومي، للثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1999، ص08.

[2] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ج2، ط1، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص120.

"فتوح البلدان" لـ"**البلاذري أحمد بن يحي**" الذّي اهتم بإبراز جوانب تاريخية وجغرافية هامة. الأمر الذّي جعل الباحث "**كريتشوفسكي**" يصفه بقوله: لقد حفظ لنا "**الباذري**" مادة هامة في محيط الجغرافية التاريخية يستحيل معها إغفال ذكر صاحبها في عرض للأدب الجغرافي[1].

وقد خطت الرحلة في الأدب العربي خطوات أكثر تقدما في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) بمستواها الأدبي الراقي واتساع مجالها الجغرافي، وانتقلت إلى مستوى عالمي أوسع وأشمل خصوصا بعد ظهور الرحلة الأكثر شهرة في أدب الرحلات، وهي رحلة "**ابن بطوطة**" الموسومة بـ: "تحفة النظار في غرائب الأمطار الأمصار وعجائب الأسفار" التي ذكر فيها محققها بأن "ابن بطوطة" أورد فيها أسماء الكثير من الأئمة، والعلماء والشعراء والملوك والأمراء، هذا فضلا عن أسماء البلاد والبقاع والقرى التي زارها ومكث فيها أو مرّ بها[2]. مما ينبء بأن هذا الرجل كان شغوفا جدا بالرحلة ولعل هذا ما دفع الباحث "شوقي ضيف" إلى القول: إنّ "**ابن بطوطة**" لم يترك بلدا نزل بها إلاّ وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها وقضاتها وبهذا عدّ خاتمة للرحالين المغاربة وأكبرهم خاصة من أولئك الذّين انتظم مسار رحلتهم لتشمل كل العالم الاسلامي، انطلاقا من بلده الأصلي طنجة ولهذا حظيت رحلته بكثير من الدّراسات العربية الإسلامية وحتى العالمية حتى قيل فيه بأنّه: "أشهر من جال في البلاد وجاس في الأمصار، التقى بالعلماء والملوك، وتزوج النّساء في

[1] كراتشكوفسكي (أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدّين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1987، ص161.

[2] ابن بطوطة (محمد بن عبد الله): رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول والثاني، دار الفكر، بيروت، ط1، دت، ص05.

أغلب البلدان، وقطع أكثر من مئة وعشرين ألف كيلومتر، وداس جميع الأراضي التي وصل إليها بشر حسب علمه باستثناء دول الشمال وأبرز من كتب عن إفريقيا".

ويعتبر كتاب "**ابن بطوطة**" من أعظم كتب الرّحلة امتاعا جاذبية، هذا فضلا عن احتوائه على كم هائل من المادة الجغرافية والاثنوغرافية والأدبية، الأمر الذّي جعل بعض العلماء الغرب يشككون في هذا الانجاز الذّي اقتنعوا واعترفوا بقدره فيما بعد.

ونلمس في هذا الكلام تأكيدا لقيمة هذا الكتاب، ومن الرحلات بزغت في هذا القرن أيضا رحلة "سلام الترجمان" الذّي وصفها الباحث "**زكي محمد حسين**" بقوله: إنّ رحلة سلام الترجمان إلى الصين الشمالي قد تكون حقيقة تاريخية[1].

هذا فضلا عن رحلة "سلمان التاجر" إلى الهند والصين، و"**ابن وهب القرشي**" و "**محمد بن موسى المنجم**" التي تذكر المصادر أنّه: قام برحلتين إلى آسيا الصغرى لفحص كهف الرقيم الذّي لجأ إليه مجموعة من الشباب هربوا بدينهم وعرفوا باسم أهل الكهف، والثانية مع "**سلام الترجمان**" لزيارة سدّ يأجوج وماجوج[2]. ونستشف ممّا سبق أن القرن الثالث الهجري كان قرنا حافلا بالانجازات المتعلقة بأدب الرحلة، الأمر يجعلنا ندرك بأنّ انطلاقة هذا الفن كانت انطلاقة قوية عززتها جهود الاعلام الذّين سبق ذكرهم.

ويعد القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) من أزهى الفترات، إذ عرف فيه هذا الفن نضجا وازدهارا لم يعرفه في القرون السابقة أو اللاحقة، حتى انّ أسس أدب الرحلة وضعت

[1] محمد حسين (زكي): الرحالة في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص15.
[2] المرجع نفسه، ص104.

فيه كما أن كتب الرحلات التي ألّفت فيه كانت الأساس الأول الذي قامت عليه[1] التالية سواء في الأدب أو الجغرافيا أو الموسوعات أو المعاجم المتخصصة. ولعل مردّ ذلك كثرة التأليف وانفتاح الرحالة على العالم الخارجي بعد أن اقتصرت الرحلة في القرن الثالث على االجزيرة وما جاورها.

أنواع الرّحلات:

I- الرحلة الفعلية:

1- الرحلات الحجية، الزيارية:

تحفل النّصوص الرحلية الحجية بوفرة في التنويع، تأتي كما لو أنها سير ذاتية أو مذكرات شخصية محدودة في الزمان والمكان، تكتب في وضعيات مختلفة بأساليب تتارجح بين التقرير الجاف، والانسياب الروماني المتدثر بالمعاناة وغلالات من المحنة والبعد عن الوطن والأصحاب[2].

هذا النّوع من الرحلة الموسومة بالحجية أو الزيارية المدونة صورة عن نشاط إنساني مكثف عرف تناسيالارتباطه بالدين الذّي حث على السفر والحج للتطهر من الآثام، والشعور بالارتياح لبدء حياة جديدة تكون عتبة للحياة الأخرى أو لتزكية الحياة السابقة وتتويجها والتبرك بالأماكن المقدسة، وإتمام فرض ديني وهو حتمية تلزمها الأخلاق والتعاليم الدّينية.

[1] حسن محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1968، ص1.

[2] شعيب حليفي- الرحلة في الادب العربي- التجنس – آليات الكتابة- خطاب المتخيل، ط1، 2006، رؤية للنشر والتوزيع.

كما أنّ التعالق بين الرحلي الديني دفع بالعديد ممن يمتلكون حسا أدبيا إلى تدوين رحلاتهم باعتبارها هجرة ومرحلة حاسمة في حياتهم.

ومايميزها عن باقي الرحلات هو التعدد، لكونها ذات خصائص محددة، وعناصر تحكم بنيتها على المستويين الشكلي والدّلالي، وخكذا يمكن مقاربة الرحلة الحجية من خلال ثلاث محطات تتحول إلى مشاهد لفهم عملية اشتغال النص الحجي وتفكيكه.

هذه المشاهد هي: مشهد الخروج، مشهد الميسر ثم مشهد الوصول[1].

وهي محطات متماسكة تحكمها عدة وشائج وتتخللها تفاصيل ومفاجآت.

أ-**مشهد الخروج:** إنّ السفر في الرحلة الحجية لا يكون فرديا وإنّما ضمن ركب منظم يرأسه شخص عارف بالطّريق يوسف بالتقوى والأمانة والحنكة في التفاوض وحسم الأمور... وكلّها تفاصيل تبرز في مشهد الخروج الذّي يقترن بلحضتين أساسيتين تتعلقان بلحظة كتابة هذا المشهد، هل دون أثناء أو بعيد الخروج أم بعد انتهاء الرحلة؟ وهي أسئلة رئيسية في فهم العديد من المعطيات، لأنّ هذا المشهد تتأتى أهيمته من تضمنه لعناصر تخبيلية ترفدها رؤية الرحالة: الراوي التي تسبق مشهد الوصول[2].

ومن هنا تأتي أهمية النّص الذّي ينكتب أثناء الارتحال، فهو يسجل انطباعات حول المعلوم متوغلا لحظة لحظة في المجهول، حال النصوص العديدة التي كان الرحالة فيها

[1] شعيب حليفي- الرحلة في الأدب العربي- التجنس- آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ص139.

[2] المرجع نفسه، ص140.

يستثمر فرصة استراحته لتدوين النفاصيل قبل امتداد المسافة بين لحظة الحدث وبين فعل التدوين.

وتعتبر اللحظة الموالية حافر لرحلة، ففيها يعمد الراوي إلى ترصيع نصه بسرد الحافز الذي دفعه للخروج إلى الحج والزيارة من أجل اتمام الفرائض الدّينية والتطهر والتكفير عن الأخطاء والبحث عن الخلاص من الضيق والأزمات[1].

ب-**مشهد المسير**: ويتضمن وجهين للسفر، ذهابا وإيابا، مع اختلاف يميزها، فالأول يكون مسهبا تفصيليا، والثاني مختصرا وسريعا درءا لأي تكرار، لا يروي فيه إلاّ ما يكمل الأول.

ويشكل مشهد المسير بؤرة النّص الرحلي، ونسيج الحكي وجامعه لأنّ السارد يصف ويروي انطلاقا من عين متحركة تسير من نقطة إلى أخرى، ومن المعلوم إلى المجهول وعادة ما يتضمن هذا المشهد معظم أحداث الرحلة بما فيها معاناة الرحيل والمشاهدات، والمروي عن طريق السماع والحوار. ذلك أنّه يمكن وثف هذه اللحظة بأنّها مشهد العين المتحركة المرفودة برؤى وتخيلات ترسم فضاءات الوصول، تسند بالدّهشة، فتجيء سرود وأوصاف هذا المشهد مبطنة بالأحلام وبالأحكام التي تتكئ على المقارنة بين معطيات الراوي والواقع المرئي والمسموع[2].

وفي رحلة "**العبدري**"، داخل مشهد المسير، هناك مشهدان:

[1] شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص140.

[2] شعيب حليفي- الرحلة في الادب العربي- التجنس – آليات الكتابة- خطاب المتخيل، ص143.

المشهد الأول: افتتاحي داخلي ينطلق من آخر بلاد السوس، فيحكم عليها بعد وصف طبيعتها بموت العلم فيها، كما يصف ماضيها الموسوم بالخطوب والرهبة، وحاضرها المليء بالحروب.

المشهد الثاني: ويتمثل في لحظة المسير الخارجي بدءا بوصول الرحالة إلى تلمسان، فيصف فيها تيهه وتعبه في المغارة الخطيرة، لأنّ تلمسان في أول نقط مسيره والفضاء الذّي سيدّون فيه بداية رحلته. لكن شيئين غريبين سيشدان انتباهه هما: مشهد الحجاج الذين يطلبون العطاء، وبعض خصوصيات تلمسان، حيث يتسم أهلها بالبخل وعدم إقراء الضيف، وضعف العلم والقضاء، وتحايل النّاس وتدليسهم، ويتواصل رحيله عبر الجزائر، ثم بجاية وقسنطينة وباجة وتونس، والقيروان وقابس، ثم طرابلس والاسكندرية والقاهرة، وعبر هذه المشاهد[1] تتبدى عناصر رؤية الرحالة أو الأسس التي يرسم وفقها أحكامه ويضبط مقارناته، وهي خمس نقط:

- **التاريخ:** يعود إلى تاريخ الأمكنة بذكر ماضيها المشرق أو الشوائب التي حلت بها قديما.
- **الحضارة:** من خلال إبرازه للعمران والطبخ بالإضافة إلى وصف الطبيعة وجمالها.

[1] العبدري، رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية. الرباط، المغرب، جامعة محمد الخامس، سلسلة الرحلات4، حجازية1، 1968، ص1.

- **العلم:** وهو نقطة أساسية يركز عليها الرحالة في كل لحظة توقف، بحيث يستطيع غياب العلم أو وجوده واصفا لقاءاته مع أدباء وعلماء لتلك النقطة وثمرة ذات اللقاء.
- **الدين:** يحكم على نقطة الوصول بضعف التدوين أو شدته.
- **طبائع النّاس:** يصفهم من زاوية الأخلاق والاستقامة، أو الفساد والانحراف، وما يتتبع ذلك من ذم لهم بالبغض والبخل.

إنّ مشهد المسير هو لوحات مذوّتة ملأى بأوصاف بلغت حد التجريح، تعبر عن رؤية عالم وفقية يرى في البلاد الإسلامية تقهقرا سببه ترك الدّين ومقوماته وهجر الانسان العربي للأخلاق النبيلة، وكل القيم الأساسية. لهذا كان يجد العزاء والمتنفس في لقاءاته بالشيوخ والعلماء والشعر وزيارة قبور الأولياء[1].

أما مشهد السير إيابا ينطلق من القاهرة، ويتم ماكان قد ابتدأ في الذهاب. وبالتالي يظل مشهد السير الأكثر غنى والأهم باعتباره يأخذ الحيز الأوفر في النص الرحلي، ويتوفر على دينامية سردية تهيئية للمشهد القادم.

ت-**مشهد الوصول:** وهو تأسيس رؤية ثالثة تنبني على انطباعات حنينية، وقد اعتنى النقاد بمشاهد الوصول، وعلى الخصوص "**ماري برايت**" ذات التي اعتبرتها ذات دلالات في النّص الرحلي عامة، بحيث يبرز اصطدام المجرد بالملموس، كما أنّ الصورة

[1] شعيب حليفي- الرحلة في الأدب العربي- التجنس - آليات الكتابة- خطاب المتخيل، ص144.

الذهنية حسب "**هنري جيمس**"[1] تنمو في عقل المسافر طبقا لمنطقها الخاص بها، وأن الأفكار المسبقة كثيرا ما يجد المرء أنها تخالف الواقع إلى حد كبير فيتجابه خيال الرحالة واحتمالاته السابقة مع معطيات العالم الواقعي ليبحث عن التعديل والمقارنة والفهم.

وفي كلتا الحالتين تتم زيارات أخرى للتزود بالعلم في هذا المجال على يد شيوخ وعلماء وفقهاء، وتكون مشاهد المسير وحلقات الوصول مغايرة للرحلة الحجية، لأنّ هذه الرحلات الزيارية والتصوفية المتجهة نحو القبور والزوايا والمزارات تتخذ من الفضاء الواحد والمحدود هدفها، ومن الطقوس والعادات وبعض الخصوصيات، بالإضافة إلى ترجمة سير الأولياء، وسرد كرامتهم وخوارقهم، والأحاديث المتصلة بهم، مادة للكتابة وعصبا للرحلة[2].

2- رحلات المثاقفة:

انصرفت جهود العديد من الرحالة إلى تدوين نصوص تتدرج ضمن خانة الرحلات الوصفية التي يدوّنها الرحالة عقب رحلة سافر فيها إلى مكان آخر بقصد التحصيل العلمي، وتلاحق التجارب الثقافية والاحتكاك بمكونات معرفية وثقافية أخرى.

ولعل الرّحلة الموسومة بالعلمية والأدبية نص استكشافي يسجل ويؤرخ للحظة تحول المعرفة الفردية للرحالة الذّي يكتشف يصطدم ويعرف ثم يقارن ليركب، فعلى مر تاريخ كامل للرحلة فعلا ثم نصا كانت الرحلات الاستكشافية حاضرة على مستويات مترابطة يصب فيهما

[1] العبدري، رحلة العبدري، المسماة الرحلة المغربية. ص2.

[2] أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير (باي الغرب الجزائري) إلى الجنوب الصحراوي الجزائري– القاهرة، مصر، عالم الكتب، ط1، 1969، تحقيق محمد بن عبد الكريم.

هو علمي وأدبي دون حدود توضع بين ضفة العلمي والأدبي، ذلك أنّ الرحلات العلمية إلى أوروبا زاوجت بين ما هو أدبي وعلمي من خلال دراسات ارتبط فضاؤها بافريقيا أو بالشرق العربي أو بالدول العربية الإسلامية عامة، وقد تمركزت النّصوص العلمية – الأدبية حول مجال العلوم الانسانية دون العلوم الحقة كالطب والهندسة... فقد غلبت إلى حدود القرن التاسع عشر[1] الرحلات الأدبية التي تسعى إلى استكمال المعرفة عن طريق التصحيح والتوثيق والإجازة، خصوصا في مجال الفقه والحديث، وقد تجلى ذلك في البحث عن أمهات الكتب، والتقرب من العلماء والفقهاء، والجلوس إليهم في مجالس العلمية حيث تتسع دائرة الحوار.

إنّ هذا الجانب ذا الأسس الدينية يستحضر بالضرورة، عند الرحالة ثقافة أدبية ممارسة ولا يتعلق الأمر بالشعر والنثر الفني والنقد...

3- رحلات الـ «نحن» إلى الآخر:

تبرز الأنا/ النحن في علاقاتها المباشرة بالغير/ الآخر في هذا النوع الهجين، والذي يلخص وجود نص رحلي يتوفر على مقومات الرحلة بعناصرها الأدبية مع اختلافات يفرضها الموضوع، والأمر يتعلق بحمل خطاب النحن الرّسمي إلى جانب آراء ومعطيات الأنا عن الآخر، إلى الغير، وبالتالي فإن النصوص المدّونة في هذا المجال تكشف عن جزئها

[1] أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير، ص 94.

المكتوب – الأساسي في هذه العملية، وهو خطاب النحن، وحمولة الأنا، أي ماهو طاهر وباطن، ثابت ومتحرك في أفق تعديل المتحرك وتلقي الجواب عن الثابت[1].

وقد ارتبطت هذه النّصوص، بدورها، بالوضع السّياسي للبلد المرسل والبلد المستقل، في حالتي الاستقرار أو الاختلال لهذا كثيرا ما يتم اختيار العلماء والأدباء والأعيان المتمرسين لمهمة السّفارة، وما تقتضيه من حنكة في التفاوض والدّقةة في الملاحظة والبديهية، لأن الأمر، غالبا ما يتعلق بتحسين العلاقات، واقناع الآخر بما يخدم مصالح النحن، وجمع معلومات كافية عن الغير، إنّها مهام متفرعة الأبعاد تختلف أحيانا عن المهام المحدودة بإيصال خطاب أو رسالة، أو التفاوض حول مسألة معينة[2].

II- الرحلة المتخيلة:

يقترب الفيلسوف العربي " الكندي" من التخيل عبر مفردة أخرى اصطلح عليها بالتوهم، وعرفه بأنّه "الفانطاسيا" وهو قوة نفسانية ومدركة للصورة الحسية مع غيبة طينتها، ويقال الفانتاسيا هي التخيل وهو حضور سورة الأشياء المحسوسة مع غيبة طينتها[3].

هذا التعريف يقود إلى الحديث عن الرّحلة المتخيلة التي لا تتأسس فعليا في الوجود الفيزيقي، أو تتطلب تجربة معيشة على المستوى الواقعي وأخرى ذهنية تؤسس لعالم متخيل يجنح إلى صوغ أفكار وتأملات معينة تتماشى مع المثالية والعديد من المقولات والتصورات

[1] كارل سميث، أدب السفر عند هنري جيمس وأثره في فنه ضمن مجلة الثقافةالأجنبية، محور أدب الرحلات، بغداد، العراق، السنة 9، العدد3، 1989، ص90، ترجمة يؤئيل يوسف عزيز.

[2] المرجع نفسه، ص91.

[3] عاطف جودة– نصر الخيال "مفهوماته ووظائفه"، مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1984.

الصوفية والفلسفيو والدّينية التي ترسم رحلة النفس في بحثها عن عالم آخر يكون بديلا عن الواقع، وصولا إلى المطلق واليقين والحقيقة والمعرفة الخالصة للتطهير[1].

لهذا تعتبر النصوص التخيلية رحلات استكشافية تقف فيها الأنا مقابل صورتها (الباطن) عن طريق إسقاط ما هو مادي والالتفات نحو ما هو روحي، فارتبط هذا من التوهم المدون في شكل رحلات بحقول الفلسفة والتصوف والأدب. وقد تخصبت عن طريق التفاعل الثلاثي من جهة، ثم التفاعل، من جهة ثانية، مع النقاشات الدينية والمساجلات التي أفرزت مفاهيم وتصورات ذات قدرة على التحاور والتصادم والنمو. وأخيرا المشهد الثقافي – الفكر والسياسي الذّي كان له دور مشهود في توجيه وتلوين التصورات التي ستتحول– إبداعيا– إلى أشكال أدبية وفنية، من بينها شكل الرحلة المتخيّلة التي عرفت تراكما مهما في الأدب العربي وثراءا في التنوع داخل الشكل الواحد، بأساليب تراوحت بين فنية مرهفة رمزية متماسكة وعميقة. لم يكن هذا النوع طارئا، في فترة معينة، أو حكرا على بيئة أو شعب معينين، وإنّما وجد منذ القديم بدءا من جمهورية أفلاطون إلى ابن طفيل والوهراني وابن شهيد والمحاسبي وابن عربي والعربي، كما عرفت في الآداب الأوروبية وغيرها انتشارا سمي بأسماء مختلفة. فبعد الكوميديا الإلهية لدانتي جاءت نصوص اليوتوبيا، ثم القصص الفلسفي والخيال العلمي...

[1] عاطف جودة– نصر، الخيال "مفهوماته ووظائفه"، ص 110.

وتبقى السرود الرحلية التخيلية في الأدب العربي إرثا متعدد المنطلقات والأبعاد، غنيا بالمعطيات التي تفسح للتأويل والقراءات منافذ عدّة، الشيء الذّي يلزم، بدءا، بتحديد وتصنيف هذا النوع حتى تتبين أفاته.

في مستوى أول: هناك نوعان من الرحلات المتخيلة وجد في الأدب العربي ويستذان في تغايرهما إلى مكون الفضاء أساسا، ثم مكوّن الزّمن، إضافة إلى عناصر أخرى حيث توجد رحلات دنيوية وأخرى أخروية تتخلق عن طريق منام/ حلم أو حكاية للاتعاظ أو تخيل يوهم بواقعية الرحلة، وهو تشكيل يوجد في النّوعين معا[1].

أ) رحلات دنيوية:

هي النّصوص الرحلية التي يتم رسم أحداثها ووقائعها في الدنيا داخل فضاء يكون معروفا أو مرموزا إليه في العالم الواقعي الأرخي في الأزمنة الثلاثة، بحيث ينصب التركيز في الرحلات الدنيوية الزمنية (في الماضي والحاضر) على مكون الزمن باعتباره البؤرة التي تحرك النّص الرحلي في إطار تقابل المتناقضات، وإضاءة نمطقة الحلم/ المثال الذّي تتحقق فيه القيم المفتوحة، وتسمو الأخلاق وتسود العدالة... وكلها تقديرا نابعة من الحلم المثالي بواقع آخر يطهر الحاضر الفاسد.

أنّ النّص الرحلي الدنيوي في التراث العربي – السردي وجد داخل حقول متقاربة، لم تكن ثابتة بل متفاعلة في إطار صراع الأفكار والتصورات. لهذا فقد جاء مستندا على خلفيات دينية واجتماعية وسياسية، وأخرى صوفية – فلسفية أو فنية.

[1] عاطف جودة– نصر الخيال "مفهوماته ووظائفه"، ص111.

ب) رحلات أخروية:

تضم الرّحلات إلى الآخرة عوالم تخيلية مرتبطة بجنوح رسم عوالم الغيب، وتخيل وقائع يوم القيامة وتصوير ما يحدث في الجنة والجحيم بأسلوب ترهيبي وترغيبي، وهذا ما قام به العديد من الفقهاء في إطار ما سمي بأدب القيامة. ولعل "كتاب التوهم" للمحاسبي يبقى النص الذي يمكنه اعتباره أنضج من غيره من النّصوص التي تناولت الآخرة. أمّا الجانب الآخر من النصوص التي تناولت الآخرة ارتحالا وتخيلا إليها فقد اختارت تيمة مغايرة تميزها عن كل ما كتب، وهي تخيل ما يقع يوم الآخرة من محاكمات للشعراء والأدباء، وهذا ما نجده عند أبي العلاء المعري في ردّه على رسالة ابن القارح[1] ، أنّ خليفة المحاسبي ومن ار على دربه تحكمها نوازع دينية محضة مشدودة إلى فكر اصطلاحي يبغي تقويم النّاس وهذا يتهم عن طريق ترهيبهم بتصوير يوم القيامة.

أمّا خليفة المعري في رسالته فهي أدبية تتوخى تخيل قسم من الأدباء في الجنة والقسم الآخر في النار مع إيراد شواهد وحكايات تبرز وجودهم[2]. ويستمر المحاسبي بنفس الأسلوب والنهج مشيدا بذلك صورة مشدودة إلى خطابب الترهيب والترغيب، اللذين يتضمنان إشباعا بالاحتمالات في التوهم الذّي يعطي للخطابين فرصة التناوب على وصف عالمين نقيضين كل التناقض.

[1] أبو العلاء، رسالة الغفران، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، د ت، تحقيق فوزي عطوي.

[2] الحارث المحاسبي (ق 3 هـ)، كتاب التوهم، حلب، دار الوعي.

ويتم التركيز في هذه الرحلات على عنصرين مكونين لصياغة الأفكار، هما الفضاء والزمن، مع التنويع في أساليب التناول الفني للمعالجة وأيضا في طرق السرد وزواياه، ومدونات الحفز التعجيبي عند كل كاتب على حدة[1].

وتبقى كل رحلة متخيلة جزءا من نصوص الرّحلة عموما، يسمها طابع البحث عن الأنا في الآخر والغير، والبحث عن التطهر والخلاص للوصول إلى بديل هو يقين ما استحال وجوده في الواقع العيني[2].

[1] أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ص3.

[2] المرجع نفسه، ص5.

الفصل الثاني

صورة العربي في مرآة الآخر

سأواصل ترك خواطري تشرد أحيانا وتتشكل أحيانا أخرى في قوالب الدّراسة المنهجية للأدب المقارن، فلا أظن القارئ يريد أن يقرأدرسا ولكن قد لا يأبى أن يطّلع على بعض الخواطر العابرة التّي أثارها تدرس مادة هي في قلب الرّوح الحظارية المصرية الحديثة، رغم أنّها حديثة العهد بالجامعة، فمصر، ومثلها في ذلك مثل غالبية دول العالم الثالث. دائمة التّأمل في اشكالية كينونتها أو هويتها، ودائمة المحاولة لضبط المفاهيم الدّالة على أصالتها، تلك التّي تأقلمت في نفسها، وتلك التّي رفضتها. فهي في حالة تفاعل مستمر على الصّعيدين الثّقافي والسّياسي على سواء، تصادق من يصادقها، وتعادي من يعاديها، لا في مجال السّياسة وحسب، بل أيضا في محاوراتها المستمرة مع حضارات الغير وثقافاتهم، فالغير ماثل في أفكارنا ومشاعرنا حتى بعد كفاحنا الموفق ضد قوى الاستعمار والطّغيان، فنحن لا نعيش وحدنا في عالم عربي إسلامي موحد الفكر ومتحدة الكلمة، بل نعيش في حالة مدّ وجزر مع تيارات الفكر التّي تتلاطم على شواطئنا من الغرب ومن الشرق بكل مواجاتها المتفرقة وكلّما بحثنا عن ذاتنا وجدنا فيها أشباحا من حضارات منقضية، وثقافات غازية، وإدراك الأصالة يكون بمثابة محاولة بطرق صراط ضيق بين مقاومة الغزو والفكري، والتّرحاب يه إلى مدى، ولذلك يكون الصّراع مستمرا مع الغير الحقة في رؤيانا بسبب الجهد المتكرر الذّي نبذله في سبيل إثبات وجودنا[1]، وكم من مرّة ظهرت في الملهات المصرية الحديثة شخصية الأجنبي الذّي يلحن في العربية، ويتلعثم في نطق ألفاظها، بقصد إضحاك

[1] مجدي وهبة: أدبيات أدب المقارن ومصطلحات أخرى- الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، 1991- الطبعة الأولى 1991، ص 25.

الجمهور، وإشعاره بأنّه خير من الأجنبي وكم من مرة صورت الحظارة الأوروبية في خطبنا ومقالاتنا على أنّها مادية بصفة عامة،[1] مدمجين فيها التّيارات الفكرية التّي عمّت بلادها الرّأسمالية والاشتراكية على السواء، فلابد أن نتذكر جذورها الذّهنية من فكر مسيحي وثقافة يونانية ولاتينية، تراكمت عليها طبقات هامة جدا من النّظريات الفرويدية في علم النّفس، والنّظريات الماركسية في تأويل البناء الاجتماعي، والمذاهب البرالية الإنسانية، النّزعة في التّشريع الاجتماعي، والأزمات المزلزلة التّي ترتبت على نمو القوميات المتطرفة في أوروبا، وذلك خاصة في أوروبا فيما يتعلق بالظّاهرة الفاشيشية في إيطاليا والنّازية في ألمانيا، كل هذا له، والواضح في تشكيل النّفسية الأوربية في شرقها وغربها، كما أدّى إلى الإنقسام المذهبي الخطير الذّي يعيشه العالم، وأدّى أيضا إلى انتشار الصّهيونية في شكلها الاستيطاني في أراضي فلسطين من ناحية وفي شكلها المتغلغل في نفوس الأمريكيين والأوروبيين، وظمائرنا وضمائرهم من ناحية أخرى.

كل هذا لابد أن يفهمه ليتضح لنا العالم الغرب والشّرق في العصر.[2]

[1] مجدي وهبة: أدبيات أدب المقارن ومطلعات أخرى . ص25.

[2] المرجع نفسه، ص25.

صورة الآخرين:

إنّ رؤية شعب لشعب آخر من خلال الأدب نادرا ما تكون سوى أسطورية أو مشوّهة، وفيها تعبير عن عقد الكاتب النّفسية ومسلماته الوجدانية أكثر من كونه وصفا صادقا للواقع، فرؤية إنجلترا في كتاب فولتير عن رحلته في تلك البلاد لم تعن بما شاهده من فقر أو انقسامات طائفية أو غنى طفيلي، لطبقات استفادت من تجارة الرّقيق في المستعمرات وتقلبات الأسعار في الأسواق العامية، بل اهتم فولتير اهتماما خاصا بالنّظم النّيابية، والقوانين الخاصة بصيانة حقوق المواطن، وذلك لينقل ما شاهده إلى قرائه الفرنسيين، الذّين كانوا يعتبرون الحكم الملكي الفرنسي المستبد ناموسا من نواميس الطّبيعة لا بديل له حيذاك، وكذلك حاول وصف فرنسا الثّورية في كتابات الرومانسيين الإنجليز، والألمان في أوائل القرن التاسع عشر يذكرون حقوق الانسان، وانتفاضة الطّبقة الوسطى، وانتشار الوعي بالحريّة، والإخاء والمساومة ويتناسون العنف والفناء والجماعات، وسيطرت المفصلة الرّهيبة، هكذا الإنسان وهو يكتب عن بلاد غير بلاده ويصوغ مشاهداته بما في أعماق وجدانه من تطلعات وأحلام.[1]

وأشير لهذه المناسبة إلى أنّ رؤية العالم العربي لأوروبا وأمريكا في العقود القليلة الماضية لا تزال متأثرة بالرّأي القائل بأنّه مادي ومنحل خلقيا وخاضع لآثام الجشع والتّعصب. لاشكّ أنّ هناك بعض الحقيقة في هذا الرّأي، ولكنه ليس الحقيقة كلّها فإذا صحّ

[1] مجدي وهبة: أدبيات أدب المقارن ومطلعات أخرى، ص26.

أن نتكلم عن روح الغرب مفرضة لاتقيم للرّوح وزنا، وكثيرا ما اتهمنا الاستشراق بالعمل على بث الفتنة والشّكوك في أقدس مقدساتنا، ولا طالما وصفنا الغير بأنّه يشترك بمؤامرة ضدّنا أو بأنّ حضارته مستمدة من حضارتنا، وأنّ عيون أدبنا، كل هذا فعلناه دفاعا عن ذاتنا، وإن كنا نحاول أحيان أن نتطلع إلى ثقافة منتقاة فيها بعض شرقنا وبعض غربنا، كما فعل المرحوم عميد الأدب العربي الدّكتور "**طه حسين**" في كتابه "مستقبل الثّقافة في مصر" والعكس أيضا صحيح، فكم من مرة جاءت صورة مصر أو العالم العربي مئوّهة في آداب الغرب، فقلّما نجد المصري أو العربي شخصية ذات أعماق في "رباعية الاسكندرية" "**كلورانس دارال**"، تلك الرّواية الطّويلة الحديثة التّي أوجدت انطباعا نمطيا مصطنعا عن الاسكندرية في سني مابين البحرين. وما أبعد العربي أو البدوي عن الواقع في المغامرات والقصص البوليسية التّي أغرقت الأسواق في الغرب حتى وقتنا هذا[1].

صورة العرب لدى الآخر:

يعرض "**حسين العودات**" في كتابه الصّادر حديثا عن الساقي بيروت في عنوان "صورة العرب لدى الآخر" في ضوء العلاقات التاريخية لهذه الصورة في مرآة ثمانية شعوب تداخلت علاقات العرب فيها سلباوإيجابا، مع غضه الطرف عن صورة العرب أمام أنفسهم وذواتهم، وإن كان للقارئ أن يستنتج تلك المزايا من سطور النّص، ومن الواقع المعيش.

[1] جسين العودات– صورة العرب لدى الآخر– في ضوء العلاقات التاريخية– بيروت– مجلة الحياة، 14 يونيو 2014 على الساعة 19:26، ص 222.

ثمة ملاحظة تقود القارئ إلى السطر الأخير من (الكتاب 222 صفحة مع فهرس الأعلام والأماكن وتتعلق بالسؤال حول الجديد االذّي قدمه المؤلف في بحثه عن تلك الصورة لنكتشف أن أسلوب السرد التاريخي عاش على وقائع الكتاب، وغالبا ما لدى ما اختلطت لدى المؤلفصورة العربي الإسلامي عرضه لتلك الصورة وما نتج منها، فافقد غياب المنهج العلمي سيرورة النص البحثي الذّي لو توافرت له شروط البحث السوسيولوجي في قراءة سلوكيات الشعوب، واستنتاجاتها في التقويم لكانت الصورة أعمق. لذا نرى أنّ سياق العرض لم يتمكن من الغوض في تراث نلك الشعوب وإرثها الثقافي والاجتماعي والأدبي، فكانت المعالجة بما توافر منها في الثقافة الشعبية المتواترة، وحل التاريخ تلك الوقائع بلغة الخطاب السياسي اليومي والسرد[1].

على سبيل المثال، لم تعرف صورة العربي عند الصقالية أي السلاف، والروس في الفصل الثالث من الكتاب فيقول: "إنّها بدأت في القرن العاشر الميلادي بين الشعب العربي، والشعب الرّوسي، واستمرت ضعيفة إلى اليوم"

واقتصرت الصفحات الأربع لهذا الفصل على كيفية انتشار الدّين الإسلامي في مملكة البلغار في زمن الخليفة العباسي المقتدر بالله، وفي شمال القوقاز في القرن السادس عشر وبعده على يد العثمانيين إلا أنّه يقول أنه لم تكن سياسة الدولة الروسية في القرن 16 اتجاه الإسلام والمسلمين ذات اتجاه واحد[2].

[1] حسين العودات – صورة العرب لدى الآخر – في ضوء العلاقات التاريخية ص 225.

[2] المرجع نفسه، ص 226.

فأين هي صورة العرب؟ لاسيما أنّ مرويات عدّة ومأثورة في التاريخ العربي عن استجلاب بنات الصقالبة ومعاملتهن بجاريات وأمات، ماكان سيعطي صورة عن العربي لدى الصقالية (تشير في هذا السّياق إلى كتاب الجواري والقيان"، كما لم يتناول المؤلف العلاقات الروسية العربية قبل المرحلة السوفياتية وبعدها؟ ألا يوجد في أدبيات هذه الحقبة من يعطي فكرة عن تلك الصّورة؟ بخاصة أنه تطرق لصورة العرب في وسائل الإعلام الأمريكية، وإن ببضعة أسطر لم تأت بجديد، فالعرب في هذه الوسائل هم "... التناقض والتجزئة وعدم الوحدة والبداوة، وعدم الأمانة والجبن والارهاب وعدم الكفاءة"[1].

ولم تحل لغة "**العودات**" في الفصل الذّي تناول فيه علاقات العرب بالفرس من راهنية الصورة المتوترة لدى البعض، فكرر عبارات متبادلة "لأنّ العرب الذّين أسقطوا إمبراطوريات ودمّروها". وعبر الكره الفارسي عن نفسه في شكل واضح، وصريح في الزمنين الحديث والمعاصر، ولم ينفك العداد الفارسي للعرب عن الانقطاع منذ معركة القادسية، وانهيار الإمبراطوريات الساسانية ولقرون مقبلة". مستبعدا أية صورة إيجابية أو سلبية في أن تكون غير سلبية بحكم الجوار والمصالح المشتركة على عكس ما أورده "**رشيد بلوح**" في كتابه الصّادر حديثا عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في عنوان التداخل الثقافي العربي الفارسي، وفيه رأى يلوح أنّ التداخل كان شاملا ومولدا أشكالا ومجالات معرفية متعددة وأنّه كان حدثا انسانيا فريدا، وتميز بالقبول والتلقائية، وتميزت أدوار العقل الفارسي

[1] المرجع نفسه، ص224.

داخل الثقافة الإسلامية بخصائص مؤثرة خصوصا في نشأة المدارس الفكرية والفلسفية. هذا العرض المكثف للجانب للجانب السلبي من العلاقات العربية –الفارسية أنسب "العودات" مجموعة كبيرة من أسماء عمالقة لا يزالون في ذاكرة التاريخ والحاضر ولعبوا دورهم في النهضة العربية وقيادتها[1]. قد أتى معظمهم من أصول فارسية أمثال "**ابن سينا**"، "**الفرابي**"، "**سبوية**"، "**ابن المقفع**"، "**أبو حيان التوحيدي**"، "**عمر الخيام**" وغيرهم، فابتعد "**العودات**" عن ضرورة مناقشة هذه العلاقة بالعلاقة العربية– التركية، إذ حملت عنوان (الترك الفرحون بالدّين والثقافة العربية الإسلامية) على رغم المسلمات البديهية لسوداوية تلك العقود من الاحتلال العثماني والآثار التي ترتبت عليه في دنيا العرب خصوصا، ومع أنه يشير إلى فرض العثمانيين اللغة التركية على إدارات الدّولة العربية وعلى التركية على إدارات الدولة العربية على التعليم والمحاكمة وتطبيق نظام السخرة وتجنيد الشباب العرب وإلزامهم بالخدمة خارج بلادهم، وإلقاء أتاتورك "مسؤولية التخلف على العرب" ومنذ ذلك الوقت امتلأت الكتب المدرسية التركية بنقد العرب واحتقارهم واعتبارهم: خونة ناكرين للجميل ومتحالفين مع إعداء الإسلام ثم مع تركيا"، كما ألف كبار الكتاب الأتراك كتبا تاريخية تتجاهل ثقافة العرب ودورهم التاريخي في نشر الإسلام وفي السياسة العالمية[2].

واقتصرت صورة العرب في العلاقات الهندية– العربية على العلاقات التجارية وانتقال مصطلحات اللغة إلى الهندية، وبالعكس (تذكر تقديرات الباحثين أن نصف مصطلحات اللغة

[1] حسين العودات – صورة العرب لدى الآخر في ضوء العلاقات التاريخية، ص 227.

[2] المرجع السابق، ص228.

الفارسية مفردات عربية ومثلها في اللغة التركية واصفا هذه العلاقات بأنها "ودية ومتينة يمارسها الطرفان ويحترمانها بل" واستمد هذا التعاطف – بقصد الهندي– من العرب وقضاياهم وحق العرب فلسطين، لكن المؤلف نسي تصاعد حجم التبادل التجاري بين الهند وإسرائيل وصفقات الأسلحة وغياب أي دور هندي على الساحة الدّولية وأي نشاط على الساحة النهد السياسية منذ سنوات بما تعلق بالحق الفلسطيني.

أمّا الصين البعيدة فقد غلبت على علاقاتها التاريخية مع العرب الجوانب التجارية ودخول الإسلام إليها، واختلاط الصور لدى الصينيين بأنّ العربي هو الفارسي مستشهدا بقول إمبراطور الصين للرحالة الفرنسيين بعد ثورة الزنج "إنّ الملوك خمسة وأوسعهم ملكا الذّي يملك العراق لأنّه في وسط الدنيا والملوك"[1].

انتقد "العودات" العرب لعلاقتهم العنصرية بالأفارقة، خصوصا أنّها اقتصرت على تجارة الرقيق أو تجنبها، "فكانت صورة العرق الأسود في ثقافة العرب هي أنهم مجموعة تقع في أسفل السلم الاجتماعي ولا تصلح إلاّ لكي تكون رقيقا، وكان العرب لا يحترمونهم ولا يثقون بهم زينظرون إليهم نظرة عنصرية واضحة لا لبس فيها".

ويستعرض "**العودات**" والتجار العرب في الرّقيق وشراء الإماء وبقيت "صورة الأسود والزنجى في الفقافة العربية تعتبره رقيقا ومتخلفا وخبيثا ولا يمكن إصلاحه، ولم يكن يرف لهم جفن وهم يأسرون السود ويشترون من رؤساء القبائل وينقلونهم ليبيعون في بلاد أخرى" أمام

[1] حسين العودات – صورة العرب لدى الآخر– في ضوء العلاقات التاريخية، ص 229.

هذه الصّورة التي ردها "**العودات**" ما جدوى إتهامه "بأن الاستعمار الأوروبي ساهم في تشويه صورة العرب في إفريقيا؟".

أو في نقله صورة وصفها بالإيجابية عند الأفارقة عن العرب ومنها"أن العرب قوم يتمتع بثقافة عالية واطلاع واسع على الثقافات الأخرى، لكن من سلبياتهم، وفقا للأفارقة– أنّ أنظمة الحكم في البلاد العربية محتكرة ووراثية"[1].

"اليهود أول الأعداء وآخرهم"... يثير هذا الفصل الدهشة لعنوانه الدّيني أولا، والسرده العلاقة التاريخية منذ ظهور النبي والإسلام ومعاداة اليهود الدّين الإسلامي، والاكتفاء بتناوله الجانب الاسرائيلي من هذه العلاقة بصفحتين اثنتين. (هذا الفصل من الصفحة 131 إلى الصفحة 160 لم يعرض فيها لنتائج دراسة قام بها الدّكتور"علي بن صالح الخبتي" بتحليل ممضمون 23 كتاب مدرسي إسرائيلي عن العرب والمسلمين.

أمّ صورة العرب في الغرب الأوروبي، فلا تقتصر على الحوامل، ساهمت في تشويه صورة العرب والمسلمين لدى الغرب وأبرزها الدول الاستعمارية والصهيونية وآلياتها، والاستشراق وحروب الفرنجة، كما يقول المؤلف " فالعجز العربي الذّاتي تناثر أمام المرأة"[2].

[1] حسين العودات، مرجع سابق، ص 230.

[2] المرجع نفسه، ص 231.

I- الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان:

وصاحب هذا العمل هو "**أبو العيد دودو**" الذّي يعد من الباحثين الجزائريين الأوائل الذين اشتغلوا على حقل الصورائية ويعد من معربي اللسان، وذلك من خلال مؤلفه الذي عنونه بـ "الجزائر في المؤلفات الرحالة الألمان" وهو المؤلف الذّي رأى النور، وطبع لأول مرة سنة 1970 وهنا في هذا البحث قد حاول الباحث أن يرصد تمظر صورة الجزائر في مخيلة الإنسان الألماني من خلال سرد مواقف وانطباعات الأدباء والرحالة الألمان الذين زالوا الجزائر وكان ذلك ما بين 1830- 1855، ومن هؤلاء نذكر علم الطبيعة "**موريتس فاغنر**" **MORITZ Vagner** صاحب كتاب "رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836 و1837 و1838"[1].

ما وصل إليه "**أبو العيد دودو**" وما نستنتجه من هذا البحث أنّ "الرحالة الألمان لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حبا فيها ودفاعا عن حقوقها، وغنّما وضعوا أكثرها ولا سيما في الفترة الأولى لتكون دليلا لمن أراد من مواطنيهم الهجرة إلى الجزائر لإنشاء المستعمرات والإقامة بها... لأنّهم كانوا على الأغلب يشاركون المحتلين في عواطف الحقد على الدولة الجزائرية السابقة، ويرغبون رغبة كاملة في الانتقام تحت ستار الدّين والتضامن الأوروبي[2].

[1] أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، 1830- 1855، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د- ط)، 1989.

[2] موريس فاغذر Moritz Vagne- رحلات في ولاية الجزائر، (1831- 1837- 1838)، (د- ط)، 1844.

إنّ الغاية من تأليف كتب الرحلات الألمانية إنّها كانت تقديم بطاقة هوية تعرف المواطن الألماني بالجزائر، وتساهم في تشكيل صورة معينة لديه، ويهدف من خلال هذه الأعمال إلى تشييع الألمان إلى الهجرة للجزائر والإقامة بها، واتخاذها كمستعمرة.

وهنا نجد أن "**أبو العيد دودو**" قد أبدى قدرا لابأس به من الحياد، والموضوعية في المعالجة والطرح، لأنه "ينبغي أن يضع في أذهاننا دائما أن المؤلف أي المؤلف كان، عرضه للخطأ في المعلومات التي يقدمها، فقد يعود هذا الخطأ إلى عدم معرفته للغتنا الوطنية، وقلة اطلاعه على الأحداث القومية اطلاعا مباشرا أو لشرعه في الحكم دون تحري الحقائق التاريخية أو لتعلقه بوجهة نظر معينة، فالمؤرخ الجزائري حر بعد ذلك في أن يرفضه، ويتبناه بعد مناقشة علمية رزينة نجد أبو العيد دودو في هذا الكتاب يعقد مقارنة بين الحقائق والأحداث التي عاشتها الجزائر، وتلك التي تحدث عنها هؤلاء.

صورة الفرنسي في أدب الطاهر وطار:

هذه الدراسة قام بها الدكتور "**أحمد شريبط**" في العدد الخامس والخمسين (55) من مجلة آمال سنة 1982، وهي عبارة عن رصد لصورة الفرنسي في روايتين ومجموعتين قصصيتين للأديب الجزائري "**الطاهر وطار**"[1].

[1] أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان– ص 80.

وهنا نجد أن "**أحمد شريبط**" قد اتجه في دراسته هذه وجهة معاكسة تماما، حيث ناقش في دراسته للآخر الفرنسي في خطابه الروائي والقصصي، وهو يحلل هذه الرؤية في سياقها التشكيلي الفني، والإيديولوجي بهاذين الخطابين.

صورة الصحراء الجزائرية بين "إيتيان دينيه Etienne Dine " و"إيزابيل ايبر هاردت Esabel Eber Hardet ":

في هذه الدراسة يقوم الباحث "**عثمان بلميلود**" دراسة حداثية من حيث الموضوع والمنهج على حد سواء، وقد قدم هذا البحث إلى كلية الآداب بجامعة وهران لنيل شهادة الماجيستر في الدراسات المقارنة سنة 2001.

ويعد هذا البحث في مجمله عبارة عن استنتاج واستقراء لصورة الصحراء الجزائرية من خلال قصص إيزابيل إيبر هاردت وقصة "خضرة" راقصة أولاد نايل "**لإيتيان**" "**نصر الدين دينيه**" من خلال "استقراء واستنطاق بعض من لوحاته"Tableau de la vie arrabé .

ويتكلم الباحث عن سبب جمعه ومقارنته لهاذين الأدبين الرومنسيين إلى أنهما: "استقراء في المجتمع الجزائري وتمكنا من الكثير من عناصره، وثوابته اللغوية والعقيدية والاجتماعية وهنا في هذه الدراسة أراد الباحث أن يعرف رؤية كل من "**إيتيان دينيه**" و"**إيزابيل ايبر هاردت**" للصحراء الجزائرية هل اعتمد على المنهج ذاته بحكم إقامتهما

بالجزائر، واحتكاكهما بالمجتمع الجزائري، واطلاعها على بعض من عاداته وعن لغته ودينه؟[1].

1-صورة المجتمع الجزائري في أدب الرحالة الفرنسيين:

يعود الباحث "**عثمان بلميلود**" يتمرس أكثر في حقل الصورائية من خلال بحثه "صورة أولاد نايل في الأدب الفرنسي من 1830- 1930" وهو عبارة عن أطروحة تقدم بها إلى كلية الآداب بجامعة وهران لنيل درجة الدكتوراه سنة 2008، وهذه الدراسة قد رصدت الصورة الطبيعية للمجتمع الجزائري في مخيال الآخر (الفرنسي) من خلال أخذ بيئة ومجتمع أولاد نايل كحقل تطبيقي، وفضاء للدراسة، مشتغلا على توسيع مجال المقارنة إلى عدد كبير من الكتاب الإستعماريين الذين زاروا أو كتبوا عن رحلاتهم ومغامراتهم إلى الجزائر، ودول الساحل الإفريقي أمثال: "**الجنرال أوجين دوماسEugene Dumes** " و"**إميل ماسكيري Emil Mosqueray**"[2].

2- صورة العربي بين "فرانس كافكاFranz Kafka " و"ألبير كامو Albert Gamus":

وهي دراسة تقدمت بها "**معربي هوارية**" في حقل الصورائية المقارنة، إلى كلية الآداب والفنون بجامعة وهران سنة 2003 لنيل شهادة الماجستر في الأدب العربي.

[1] عثمان بلميلود، صورة أولاد نايل في الأدب الفرنسي 1830-1930، أطروحة دكتوراه مخطوطة، الآداب، جامعة وهران، الجزائر، 2008.

[2] المرجع نفسه، ص 40.

في هذا البحث جمعت الباحثة بين الأديبين "**فرانس كافا**" و"**ألبير كامو**" لكثرة نقاط الالتقاء بينهما حيث أنها حققت نوعا من التقارب فضلا عن كون كامو هو الذي قرأ لـ "**كافكا**" واطلع على طريقة تفكيره ومواقفه تجاه الموضوعات التي عالجها في أدبه[1]

إنّ هذا التقارب بين هذين الأديبين هو الظروف المعيشية المتشابهة التي مرا بها، وتجاربهم المختلفة، وهذا ما أفرز لديهم تقاربا على مستوى التجارب الأدبية.

في هذا البحث أرادت الباحثة الكشف عن تفاصيل الصورة التي تشكله في ذهنية الكاتبين عن العربي ولهذا قامت الباحثة في سياق ذلك بتقديم قراءة تقابلية بين صورة العربي في قصتي "بنات أول وعرب" و"صفحة قديمة"، ورواية "الغريب".[2]

صورة الجزائر في الأدب الفرنسي "غي دي موباسان Gy De Maupassant " و"ألبير كامو":

هي دراسة تحليلية وصفية تقدمه "**أمينة سوفلان**" إلى كلية الآداب واللغات بجامعة بن يوسف بن خدة بالجزائر سنة 2009 لنيل شهادة الماجستير في قضايا الأدب والدراسات النقدية والمقارنة وقد عالجت في هذه الدراسة محاور كبرى كالصورة ومجال دراستها في الأدب المقارن، ثم تطرقت الباحثة إلى الحديث عن أوليات ظهور صورة الجزائر في الوعي الفرنسي، مع التطرق إلى الكاتبين "**غي دي موباسان– Gy De Maupassant** "و"**ألبير**

[1] معربي هوارية، صورة العربي بين فرانس كافا وألبير كامو، رسالة ماجيستر مخطوطة، الأخضر بن عبد الله، كلية الداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، 2003، ص 201.

[2] عثمان بلميلود، صورة أولاد نايل في الأدب الفرنسي 1830–1930، ص 50.

كامو Albert Gamus– " وعلاقتهما بالجزائر ثم إجراء دراسة تحليلية ووضعية لنصوص مختارة فيما يخص[1] صورة الجزائر في الأدب الفرنسي، مع تأويلها، كما تجلت في الثقافة والملاحظ في هذه الدراسة أنها رصدت الصورة وتتبعت مواطن تجليها عبر الوحدات المشكلة للخطاب بما في ذلك الأشخاص، والأماكن والزمن بأنواعه الخطي والتاريخي، والأسطوري، والعمل على رصد كل حركات الأشخاص ضمن السياق العام للنص، بالإضافة إلى طبيعة المعجم اللغوي، والأنماط أي الوحدات الإيديولوجية المتصلة ببعض الممارسات السلبية كالسرقة والإجرام والعنف والتخلف والجهل والكذب وغيرهما[2].

لقد تعمدت الباحثة في هذه الدراسة تأويل صورة الجزائر والوقوف على كيفية تجليها في الثقافة الفرنسية، مع التركيز على صورة العربي (الجزائري) وقد وصلت الباحثة إلى استخلاص مواقف كلا الكاتبين من الجزائر، وثورتها، ثم القيام بموازنة بين هذه المواقف.

والملاحظ حول هذه الدراسات بين التنظير والتطبيق، اعتمادا على دراسات وبحوث أدبية مقارنة سابقة، بالنظر إلى ما تقدم ذكره عن البحث في حقل الصورائية فإن هذا الحقل قد لقي اهتمام الدارسين الجزائريين والمغاربة والمشارقة، نظرا لأهمية هذا النوع من البحوث في توجيه مسار العلاقات الدولية بين الشعوب وتحقيق التقارب فيما بينهما[3].

---

[1] أمينة سوغلان، صورة الجزائر في الأدب الفرنسي، غي دي موباسان، وألبير كامو، رسالة ماجيستير مخطوطة، إشراف، عبد القادر بوزيدة، جامعة الجزائر، 2008–2009.

[2] المرجع نفسه، ص 296.

[3] المرجع السابق، ص51.

قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية ومنها مدينة مراكش المغربية التي استقرت فيها مدة عامين، وقد تناولت في أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة برلين موضوع "أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية" وتناولت في مؤلفها الصادر عام 1955م بعنوان "الرجل والمرأة" فضل العرب على الحضارة الغربية خاصة والإنسانية بصفة عامة.

يتلهف العرب والمسلمون على الدراسات والأبحاث "**زيغريد هونكه**" التي مازالت تقول عن الإنسان الكثير، ولم يستطع أن تخفي اعجابها برسول الإسلام، أعطى أن يعطي للمجتمع صورة جديدة برسالته[1].

[1] أحمد حامد، الإسلام ورسوله في فكر هؤولاء، ص 98.

الحركات الإستشراقية:

إن الدّراسات اللاهوتية قد اهتمت بالديانة الإسلامية في سياق اهتمامها بدراسة الديانات العامة.

وهناك نجذ الدراسات الاستشراقية تأخذ بعدا آخر حيث راحت تخدم مصالح أوروبا خاصة سياسياتها الاستعمارية، وهكذا كان أهم ما يعاب على هذه الدراسات خلوها من الموضوعية، والأمانة العلمية في نقل الأحداث والتعبير عنها.

وتعني الحركة الاستشراقية تلك الموجة من الوافدين الغربيين الذّين عنوا لدراسة اللغات والمؤلفات، والتراث الشرقي بصفة عامة، وترجمته إلى لغاتهم، وقد بدأت هذه الحركة تحت غطاء ديني مع توالي أفواج الحجيج المسيحيين الأوروبيين الذين وفدوا إلى الأرائي المقدسة بغية تعلم لغات الكتاب المقدس. لتتطور بشكل بارز مطلع القرن السابع عشر مع مستشرقين وجدوا في الثقافة كنزا للمعرفة[1].

وكثيرا ما تساهم الحروب والحملات العسكرية في تطور حركة الاستشراق، وهنا نضرب مثال: حملة "**نابوليون بونابرت**" على مصر سنة (1797- 1801) التي تشكلت حلبة الصراع بين العالمين الشرقي والغربي، وكان لها تأثير كبير على تطور حركة الاستشراق والاهتمام به.

[1] ناجي عويجان، تطور صورة الشرق في الأدب الانجليزي، ترجمة: تالاصباغ، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 205.

ولذلك فإنّ الصورة التي رسمها المستشرقون للشرق ليست على الشاكلة ذاتها، "فمن قرأ كتابين أو ثلاثة كتب الرحالة المتعلقة بالقرن السابع عشر، فكأنه قرأ العشرات منها، حيث تتبلور التمثيلات فيها كنماذج، فمن يبحث عن الصورة النمطية للاستبدال الشرقي فإنّه يقرأ ماسيونيون[1].

فقد نظر كل مستشرق إلى الشرق من زاوية معينة ذات طبيعة مختلفة، أمّا سياسية أو اجتماعية أو ثقافية، إلاّ أنّ زاوية النظر سواء كانت إيجابية أو سلبية، فإنّها تقدم نماذج حية عن الصورة التي تشكلها الذهنية الغربية عن الشرق. وهنا نتكلم عن دور الدراسات الاستشراقية في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية، بل "أسهم المستشرقون في كتابة دراسات عن التراث العربي الإسلامي، فأخرجوا عشرات المخطوطات واهتموا بالبراديات الغربية، ودرسوا ظهور الإسلام وانتشاره وفلسفته، وترجموا القرآن الكريم، واهتموا بقراءاته، واهتموا بالحديث النّبوي، وصنفوا معجما مفهرسا لألفاظه ودرسوا شخصية الرّسول عليه السلام، كما قدموا دراسات تاريخية عن بلاد العرب منذ الجاهلية، واعتنوا بالفلسفة الإسلامية، ودرسوا علوم الحضارة الإسلامية وفنونها، ولغاتها وآدابها"[2].

لقد عرفت الفترة الحديثة وفود العديد من المستشرقين الغربيين ومن أهم هؤولاء: نذكر على سبيل المثال:

[1] يوسف بكار– خليل الشيخ، الأدب المقارن، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات بالتعاون جامعة القدس المفتوحة، القاهرة، مصر، 2009، ص 214.

[2] ناجي عويجان، تطور صورة الشرق في الأدب الانجليزي، ص 213.

✓**زيغريد هونكه Sigrid Hunke:**

مستشرقة وكاتبة ألمانية واسعة الشهرة، لها شهرة عند العرب "زوجة المستشرق الألماني الدكتور "**سولتز**" عاشق العرب وآدابهم، وفنونهم، حبها لدراسة الأديان، جعلها تدرس الإسلام دراسة واعية متأنية، مما جعلها تقدم بحثا موسوعيا عن الإسلام، وامتداد أثره على العالم وذلك في دراستها "شمس العرب تشرق على الغرب" استطاعت أن تعطي من خلال حبها للإسلام فرصة ليعرفه الأوروبيون من خلالها[1].

[1] أحمد حامد، الإسلام ورسوله في فكر هؤولاء، دار الشعب للصّحافة والطّباعة والنشر، القاهرة، 1991، ص 98.

الفصل الثالث

صورة العرب عند الرحالة الفرنسيين

- الإسلام في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر:

ظلّت مكة تداعب مخيلة غير المسلمين الذين لم يكن مسموحا لهم دخولها، ونسجت الحكايات والأساطير الغربية الأوروبية حولها مناسك المسلمين فيها

وسواء كانت تلك الحكايات صحيحة أم من وحي خيالهم، فإن تركت أثرا في نفوس الأوروبيين الغربيين غير المسلمين جعلت فئات منهم تتوق شوقا لزيارة مكة. وبدأت رحلات الأوروبيين نحو مكة المكرمة منذ مرحلة مبكرة ضاربة في العصور الوسطى وحتى العصر الحديث، وربما بلغت حتى القرن التاسع عشر الميلادي نحو اثني عشرة رحلة. وشهد القرن العشرون عددا متزايدا بدرجة ملحوظة في أعداد الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة سواء ظاهرين أم متخفين في الزي الإسلامي تارة وفي لباس الحج تارة أخرى.

ويعد جول جرفيه كورتيلمون، أحد الأوروبيين القلائل الذين استطاعوا تحقيق رغباتهم في دخول حرمي مكة المكرمة والمدينة في وقت كان يصعب على غير المسلم الدخول إليهما، فضلا عن استخدام الكاميرا لالتقاط الصور الفوتوغرافية. وتحفظ لنا المصادر التاريخية أسماء أشخاص، قاموا بهذه الرحلة وحققوا مبتغاهم، مثل دومنغوباديا، ريتشارد برتون وليون روش. ورحالتنا مصور فوتوغرافي فرنسي كان مقيما في الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر، وكان واحدا من الفرنسيين الذين هاموا بالمشرق وأحبوا حياته الرومانسية بصدق المشاعر وأصالة الأخلاق والقيم الإنسانية، وأثاره قيام القنصل الفرنسي ليون روش في عام 1841م برحلة حج من الجزائر إلى مكة المكرمة فقرر في عام 1841 القيام مماثلة

على خطاه، ليختبر بنفسه هذه التجربة الروحية الفريدة، وسافر بجواز السفر يحمل اسم عبد اللّه بن البشير. كان شغوفا بحب الاستطلاع فشرع بالاهتمام بالإسلام، هذا الدين الذي يحيط به من كل جهة في حياته منذ وصوله إلى الجزائر، وكانت فيها آنذاك جمعية كبيرة هي "كونكورديا" تضم الأدباء والمثقفين، وغالبية أعضائها من عليه القوم في الجزائر، يغدو كثير منهم من كبار الصحافيين في الجزائر وباريس، ومن ممارسي المعاملات التجارية الكبرى، عقد كورتيلمون صداقات مع عدد من أعضاء هذه الجمعية، وعرف كيف يستثمر هذه الصداقات.

وكان كورتيلمون محبا للترحال، فسافر إلى مناطق مختلفة من الجزائر والقاهرة والقدس ودمشق، وعاد بزاد من الصور التي نشرها في مجلة أسسها، وكان يعرض صوره للبيع في معرضه في شارع "ترواكولور" في مدينة الجزائر العاصمة، وبسبب ما يسمعه من الحجاج القادمين من مكة أحب أن يذهب إليها ويرى بنفسه ويصور هذه المدينة المقدسة، يقول: "رغبت في كشف سر هذه المدينة المقدسة ليس لإتمام رحلتي كبقية الرحلات، وإنما الدافع هو أن أكمل أبحاثي حول الشرق المعاصر، هذا الشرق المسلم الذي أخذت على عاتقي أمر وصفه مجتازا إياه بكل الاتجاهات، لقد أمضيت شبابي فيه وأنا أحبه كما يحبه كل من عرفه". وعن حبه للإسلام وأهله يقول: " أما بالنسبة إلي فأنا أحب الشرق بسمائه الزرقاء، وأحب الإسلام ببساطته، وأعجب بمعتقداته الراسخة". تعرف إلى من الجزائر"**الحاج أكلي**" وعرّفه برغبته في الذهاب إلى مكة، فعرض فكرته على حاكم الجزائر الفرنسي

"**كامبون**" فأبدى اهتماما وأعطاه جواز سفر باسم "**عبد اللّه بن بشير**"، ولكن على مسؤوليته الخاصة، وانطلق في الرحلة علم 1894، وكان له العمر 31 سنة، وأعلن حبه للإسلام ومارس شعائر الصلاة، والصيام الحج بكل تقى، وتفاعل مع أصدقائه من الجزائريين ومن أهل الحجاز بكل مودة، وإن كان خشي من الإقرار بإسلامه في كتابه هذا الذي نشر في فرنسا عام 1896، فأدعى أنه: "يجب الإسلام ببساطته ومعتقداته الراسخة، من دون أن تكون له الجرأة على اعتناقها."

لكن مع ذلك يبقى الكتاب وثيقة وجدانية شفافة تدل على تفاعل إيجابي حميم من مثقف غربي تجاه حضارتنا الإسلامية. ثم قام برحلة إلى إقليم التبت في الصين عام 1902 ونشر وقائع رحلته في كتاب عام 1904، واستغرقت تلك الرحلة أكثر من سنة، وبعد عودته ذهب إلى باريس وألقي محاضراته عن مكة والتبت وعرض صور تلك الرحلات، وعايش كورتيلمون إنشاء سكة دمشق، المدينة المنورة، واشتغل فيها 55 مهندسا تركيا بالإضافة إلى مهندسين غربيين، أحدهما فرنسي والآخر ألماني "**مايسنر**".

كما تمت الاستعانة بنحو سبعة آلاف جندي من الجيش التركي، وكلف المشرع 93 مليون فرنك فرنسي، وبلغ طول السكة 1320كلم، ودشنت مع نهاية فصل صيف عام 1910، ولما كان انتشار وباء الكوليرا خلال رحلة كورتيلمون إلى مكة المكرمة عام 1894 منه من زيادة المدينة المنورة للصلاة في المسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، والتشرف

بالسلام عليه، فقد عمل المستحيل للتوجه على متن القطار إلى المدينة المنورة من أجل التقاط الصور للمسجد النبوي الشريف، على وجه الخصوص، والمدينة العموم.

وفي أوائل أيلون (سبتمبر) 1910 استقل القطار مع أعضاء لجنة تنظيمية كان إرسالها لحضور حفلة تدشين محطة سكة الحديد في المدينة المنورة، وقام بالتقاط صور كثيرة، منها صور للمسجد النبوي الشريف، وهي من أقدم الصور الملونة لهذا المسجد، وتوجد هذه الوثيقة التاريخية في متحف روبير لينين السينمائي في باريس، وأول طبعة صدرت لكتابه نشرتها مكتبة هاشيت في باريس عام 1896، وسرعان ما تلتها طبعة ثانية في العام ذاته نظرا إلى إقبال القراء عليه ولجمالية صوره التي تعد من أوائل ما أطلع عليه الأوروبيون من صور مكة في ذلك العصر، حتى أنها أتت بعد فترة غير طويلة مما نشره الهولندي "**كريستيان سنوكهورخرونيه**" **(الحاج عبد الغفار)**، في كتابه " أطلس الصور عن مكة" الذي صدر في لاهاي عام 1888.

ونشر "**كورتيلمون**" في كتابه 33 صورة بالإضافة إلى صور بانورامية لمكة المكرمة مطوية داخل الكتاب، وعدا عن ذلك قام في عام 1897 بنشر مجموعة جديدة من الصور التي سجل من خلالها وقائع الحياة الاجتماعية للمسلمين ووصفه الأدبي بما خطه من أوراق بعد عودته إلى موطنه كأوروبي موشح باحترام حاج لبيان صورة مكة تسمو بها مضامينها ومحتوياتها لتشكل "وثيقة"، ومصدرا، وأداة لا غنى لمؤرخ المدينة عنها، جنبا إلى جنب مع وثائق ومصادر وأدوات ووسائل أخرى، في الطريق إلى كتابة تاريخ مكة ودراسته.

يستحق هذا الكتاب الذي أعطاه مؤلفه "**شارل ديدييه**" عنوان "رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر، شريف مكة المكرمة" اهتماما واسعا من القراء العرب لأن مؤلفه فرنسي وكتابات الفرنسيين عن شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر تبدو أقل مما سجله الإنجليزية والألمان، وكتاب "**ديدييه**" يبرهن على أن فرنسا كانت لديها أسبابها للاهتمام بالأحوال في جزيرة العرب وهذا الاهتمام كانت له جوانبه الخاصة التي تختلف كثيرا عن اهتمامات الدول الأوروبية الأخرى.

ويعنى المؤلف بالجوانب الإنسانية ويركز أكثر من غيره على الإنسان العربي في مقارنات ذات دلالة واضحة مع الأمم الأخرى ومعلوماته عن النواحي الثقافية والأخلاقية أكثر أهمية وحيوية من تلك التي وردت في رحلات الأوروبيين في تلك الفترة.

و"**شارل ديدييه**" وإن حمل الجنسية السويسرية فقد ظّل يحمل الوفاء لموطنه الأصلي فرنسا، ويعتقد د. محمد خير البقاعي مترجم نص رحلته من الفرنسية أنه كان على الأرجح في مهمة شبه رسمية لاستطلاع رأي شريف مكة بشأن الصراع بين إنجليترا وفرنسا وروسيا حول اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية وشريف مكة في السنة التي زار فيها ديدييه الحجاز عام 18م وهو "**عبد المطلب ابن غالب**" قد عامل الفرنسي ورفيقه البريطاني في الرحلة القس هاملتون على أنهما مبعوثان من دولتهما لاستطلاع أحوال بلاد العرب ومعرفة آراء شريف مكة السياسية.

وتحفل رحلة "**ديدييه**" بتفاصيل مفعمة بالحيوية عن أحوال ميناء السويس نقطة انطلاقه إلى جدة وقد حمل على الخديو عباس حلمي الأول وسياسته التي أدت إلى إبعاد كل الفرنسيين الذين عملوا في خدمة والده محمد علي باشا وتقريب البريطانيين بدلا منهم، مثلما تحوي أيضا ملاحظات دقيقة عن جدة والطائف فضلا عن أوصاف شاعرية لمعالم بلاد العرب والتي كان ديدييه يملي أوصافها من ذاكرته بعد أن فقد القدرة على الإبصار عند كتابة مذكرات رحلته تلك في عام 1856م، قبل أن يبلغ عامه الستين.

كان شريف مكة آنذاك يقيم في الطائف تحسبا لهجوم الباشا العثماني ضده، وكتب ديدييه يشيد بكرم الضيافة الذي قوبل به هو رفيقه البريطاني ويورد نصوصا صادقة لرؤية هذا الأوروبي لشبه الجزيرة العربية وأهلها.

ويتحدث "**ديدييه**" عن البدو الذين صادفهم على مقربة من جبل عرفات وملابسهم وأسلحتهم، كانت الزرقاء تغطي رؤوسهم ووضع عليها عقال أسود مصنوع من خليط من الشمع والزبد والراتج المعجونة معا وحواف العقال الخارجية مزينة بعروق اللؤلؤ. وكان هؤلاء الرجال طوالا ممشوقي القوام وقسماتهم متناغمة وبشرتهم سمراء داكنة وكان بينهم أطفال تتجاوز أعمارهم عشرة أو اثني عشر عاما يلبسون كالرجال ويتسلحون بمثل سلاحهم وكانوا في غاية الكياسة.

ويقول: شد انتباهي السلوك الأبي والمؤدب في الوقت نفسه لدى الرجال فقد كانوا يحدثوننا دون ارتباك وكنا نلمس لديهم الاستقلالية وعزة النفس وضربا من النبل الغريزي الذي

لم يستطع أي احتكاك بالأجنبي أن يفسده عليهم في عمق صحرائهم. وكانوا أول بدو أشاهدهم في بيئتهم الحقيقية وحملت لهم منذ تلك اللحظة احتراما واستلطافا بلا حدود.

أما لقاء شريف مكة عبد المطلب بشارل ديدييه والقس "**هاملتون فجدير**" بأن يلقى عناية المؤرخين، إذ رغم العناية التي أولاها كامل بالتقاليد التي كانت توفر للشريف مكانة خاصة يستحقها ليس فقط لإشرافه على الحج ولكن قبل ذلك وبعده لانتسابه لآل البيت، وقد سجل ديدييه لأن كونه الشريف الأكبر وأمير مكة المكرمة يحتم عليه ألا ينهض لأحد إلا للسلطان الأكبر الذي ينهض هو بدوره له. وإذا أراد الشريف أم أحد زواره فإنه يحرص على ألا يكون موجودا في المجلس عند الزائر كي لا يستقبله جالسا فهو لا يدخل إلا بعده محافظا بهذه الطريقة على أصول الياقة ومحتفظا أيضا بما يتميز به. ويصف ديدييه الشريف الأكبر بأنه " كان شيخا جليلا يبلغ الستين من العمر طويل القامة نحيلا تلمس النبل في تصرفاته والتميز في كل جوانب شخصيته" ولم يكن المظهر وحده الذي استقطب اهتمام وإعجاب الفرنسي بل أيضا إطلاعه الواسع على ما كان يجري في أوروبا بين الأقطاب الكبرى إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا. ويقول "كان يطرح علي أسئلة تظهر حسن إطلاعه على الأمور وفهمه العميق للوضع لقد بدا لي منفتحا بقدر ما هو مستقل."

ونلمح في حديث ديدييه تبدلا في الأدوار ينم عن ذكاء الشريف، إذ حرص على أن يعرف من الفرنسي دقائق ما جرى في فرنسا عندما تولى نابليون الثالث الحكم في عام 1851م، وحول البلاد من جمهورية إلى إمبراطورية وراثية، وانطلق "**ديدييه**" يصف له ما

جرى بوصفه شاهد عيان أما ما كان يسعى الرحالة الفرنسي إلى معرفته، أي موقف الشريف من أطماع كل من روسيا وفرنسا وإنجلترا في الممتلكات العثمانية، فإنه لم يظفر منه بشيء ويقول "حاولت أن ألمح تلميحات بعيدة وغير مباشرة إلى موقفه الخاص وموقف بلده ولكنه لم يود التنبيه إليها وظل متمسكا في هذا الخصوص بتحفظ لم يتخل عنه لحظة واحدة ."

وتحدث "**ديدييه**" لشريف مكة عن المعرض الصناعي الكبير الذي كان يعد له حينئذ في باريس **ويقول:** "لما دعوت الشريف الأكبر إلى أن أرسل إلى المعرض نماذج من المصنوعات المحيلة وأكدت له أنها سوف تلقى هناك بعض الرواج أجانبي ضاحكا: نعم أنه زواج إثارة السخرية."

ويعقد ديدييه مقارنة بين رفيقه البريطاني والعرب الذين شاهم في رحلته، فيصف الإنجليز بأنهم نموذج للغرطرسة " ورأيتهم في كل الأماكن يخضعون خضوعا تاما للقوى الحاكمة سواء كانت مغتصبة أو شرعية ويعلمون كل الطبقات تقديس المراكز الاجتماعية، لقد ولدوا ونشئوا على أرض الإقطاعيين وشربوا مع حليب أمهاتهم روح الطبقية التي هي أساس تشريعهم الاجتماعي فالانجليز أكثر الشعوب زهوا ويجهلون أبسط مفاهيم المساواة. "

- العرب والإنجليز

ويفضل "**ديدييه**" العرب على الإنجليز بسبب عزة النفس الفطرية لدى بدو الصحراء الذين يقتربون من أكبر الشخصيات بثقة ويحدثونهم بحرية ولا يتنازلون أمام أي كائن عن الأنفة المشروعة التي تليق بالرجال ويبدو ذلك واضحا في علاقتهم وشيوخ القبائل فهم لا

يذهبون إلى خيامهم لطلب الضيافة وهم يفعلون مثل ذلك مع الشريف الأكبر نفسه إذ يعدون قصره مثل مخازن غلالهم.

وعندما يعقد المقارنة بين الأتراك والعرب يرى أن الأمة العربية متفوقة على الأتراك في كل المجالات "إنها أمة عالمة ومثقفة نبعث في العلوم قدر ما نبعث في الفن والحروب لقد كانت خلال أمد طويل أمة مبتكرة حيثما قادما حماسها الدينين لقد كانت لها مدارس تزدهر فيها دراسة الطب والعمارة والرياضيات والفلك وفي هذه المدارس تعلم الغرب وأبدعت هذه الأمة روائع أدبية ما زالت حتى اليوم متعة العقول المثقفة كلها وماذا لدى الأتراك في موازاة ذلك سوى الجهل والوحشية ."

وتستحق إحدى عباراته أن تسجل في زماننا هذا عندما يتحدث عن ضرورة استقلال العرب "ولست أرى سببا وجيها للكيل بمكيالين بأن ننكر على العرب تطلعهم للاستقلال ونجد ذلك عدلا عند الإيطاليين، وعند كل الشعوب الأوروبية التي تعاني السيطرة الأجنبية. "

استقطبت شبه الجزيرة العربية– وتاريخيا يطلق عليها جزيرة العرب أو الجزيرة العربية، كما تعرف أيضا بشبه القارة العربية، غلا أنّ هذه التسمية غير منتشرة في الأوساط العربية كما في غيرها. اهتمام الكثير من الباحثين والرحالة والمستكشفين من مختلف أرجاء العالم منذ أوائل القرنيين الماضيين.

فهي تمثل مركز جذب لكثير من الشعوب والتجارة والغزاة والمهتمون منذ فترة قديمة ترجع إلى ماقبل الميلاد، بسبب تميزت به من كونها إحدى مناطق الحضارات القديمة

وملتقى الطرق التجارية، ونقطة اتصال مع بقية الأمم فضلا عن وجود الأماكن الإسلامية المقدسة واحتضانها العديد من كبرى حضارات العالم التاريخية إلى جانب موقعها الجغرافي الذي يضعها في العالم القديم وبجانب الطرق الرئيسية للتجارة إضافة إلى ما برز في هذه المنطقة من أجداث سياسية كان لها أثر عظيم في شعوبهاوصدى خارجي قوي لدى الدول الأخرى.

مما جعل الرحالة المستكشفين من هواة جمع الطيور النادرة والحيوانات الغريبة في الأراضي النائية، يخوضون المغامرات محفوفة بخطر الموت والجوع والخوف في سبيل اكتشاف جزيرة العرب، والأغراض متباينة وأحيانا غامضة فشغف الاكتشاف ربما كان من أهم الدوافع لمغامراتهم ورحلاتهم الاستكشافية هذا العالم أرضا وبشرا والتعرف على أدق تفاصيل حياته وسلوكياته، ولقد كانت هذه الطرائق تبدأ تحت لافتات بريئة مثل: التنقيب عن الآثار، أو الاستكشافات العلمية أو حتى رحلات الصيد الترفيهية[1].

والآن عزيزي القارئ لعلك تتساءل ترى ماهو الدافع الحقيقي إلى تأليف هذه الكتب وأكثر عن الجزيرة العربية؟ وهل هو بدافع عبارة "**دوتي**" التي تقول: "إن ثراء الجزيرة العربية الجرداء شديدة التعدد والتنوع؟" أو أن أية رحلة إلى الصحراء يمكن أن تكون عامرة بالأحداث شأنها شأن أية رحلة أخرى؟ أم هو إثبات أن الاهتمام القليل يمكن أن يتطور إلى رحلة لا تنتهي من رحلات الاستكشاف؟

[1] هبة كمال سعد- الخط العربي في كتابات الرحالة الغربيين- 5 سبتمبر 2017 مجلة علي عفيفي علي غازي- العدد 240.

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب تلتقي في الخط العربي لأبعاد الزمانية لأنه يمثل معظم فترات التاريخ الإسلامي والمكانية، لأنه يشمل الرقعة الإسلامية الواسعة والموضوعية، لأنه يشكل مجالات الفن الإسلامي في صورة تميز وحدة الأمة الإسلامية في عقيدتها وتاريخها وعلومها وفنونها "ويضيف" يحفظ الخظ العربي كل ما انتجته الحضارة الاسلامية ويزين كل مائيده العرب والمسلمين ولذلك عد الفن الأكثر صلة بما أبعده العرب من إنتاج متنوع، لأنه الانتاج الأول الذّي ازدهر مع هذه الحضارة، وأعتبر أعظم ابداعاتها وقدم لإبعادها التجسيد المادي على الورق والجدران، والأواني"[1].

يثير الخط العربي انتباه واعجاب الرحالة الغربيين الذي زاروا المنطقة العربية فأحسو بجمال وقيمة الحرف العربي بل أن بعضهم تعلم الخظ العربي بما لمسوه فيه من روعة الفن، بالإضافة لأداة المعرفة، فهو الحرف الوحيد الذي جعل من كاتبوه فنا أصيلا وأضافوا له من الزخارف والتهذيب، والتشجير والتوريق ما أضفى عليه جمالا شكليا تفرد به، ولهذا انجذب له الرحالة لما وجدوا فيه[2] من سحر بيان وقام الكثير منهم بنسخ ما صدفهم من خطوط وفي هذا الكتاب يحاول الدكتور غازي أن يرصد ويحلل ما كتبه هؤلاء الرحالة عن ذلك الفن العربي الإسلامي الأصيل.

[1] هبة كمال سعد- الخط العربي في كتابات الرحالة الغربيين، ص 3.

[2] شيماء جابر- أهم كتب الرحالة والمستكشفين الغربيين- 2016/05/18، آخر تحديث 2017/12/14.

يستهل الكتاب بمقدمة تعرف بنشأة الخط العربي وتطوره الأسباب التي جعلت العرب والمسلمين يبرعون في ذلك الفن ويتوارثونه كفن ومهنة. ولماذا ينفرد فن الخط ويتميز عن سواه من الفنون الإسلامية الأخرى ويعدد أراء المؤرخين وعلماء اللغة العربية حول التحديد جذور الكتابة العربية ونشأة الخط العربي ثم يستعرض مراحل تطور الخط العربي بداية من الخط المسند وصولا إلى الخط العربي الالكتروني في عصر الجوسسة ويرى أن ذلك المورثون المهم يجب أن ينقل للأبناء والأحفاد لأنه يعمق الهوية والانتماء والمواطنة في عصر ما بعد السوبر العدمية[1].

ويستعرض الكتاب بعد ذلك وفق المنهج واحد يبدأ بالرحالة ورحلته وما تركه من مؤلفات وأهميتها التاريخية ثم يرصدها ورد في مؤلفاته عن خط العربي وأنواعه وخاصة الكوفي الذي يتميز باستقامة زواياه ولهذا من السهولة تمييزه عن سائر أنواع الخط العربي ولهذا يتعرف عليه الرحالة والمهتمون بالكتابات والنقوش العربية وأبهر هذا النوع من الخط كل ما شاهده من الرحالة، وإن لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة.

يتناول الكتاب ما ورد عن الخط العربي في ثنايا كتابات الرحالة "**كارشن ايبو رجان – روسو، كلوديس، جيمس ريح، جيمس بكنجهام ، نيقولا سيوفي، جين ديو فوا، يوليس**"، ويختم بقائمة ببلوغرافية للمصادر والمراجع التي اعتمد عليها[2].

[1] شيماء جابز – أهم كتب الرحالة والمستكشفين العربيين.

[2] المرجع نفسه

صدر كتاب "الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب" من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن 20 لأول مرة في باريس عام 1936 فيما ترجمته إلى العربية لم تر النور إلا مؤخرا بفضل مجهود الأديب والباحث الأكاديمي المغربي "**حسن بكراوي**" (دار الأمان 2017).

ويعود أصل الكتاب كما يقول مؤلفه "**روان لوبيل**" في المقدمة إلى دروس ميدانية ألقاها على طلبته في معهد الدراسات المغربية العليا بالرباط خلال ثلاثينيات القرن الماضي وهؤلاء الطلبة كانوا في مجملهم من المراقبين المدنيين وضباط الاستعلامات وموظفي الدولة الحامية ممن كان يجري تعينهم في المغرب وكان نظرا "**الماريشال ليوتي**" (المقيم العام الفرنسي آنذاك) قد ذهب إلى ضرورة أن تزودهم الإدارة الاستعمارية أكد المعقول من المعرفة للغات الزائجة بالبلاد والقدر الضروري من تاريخها الاجتماعي والثقافي، بما في ذلك عادات وتقاليد السكان، وأنظمتهم القبلية والمخزانية وغيرها بشكل يقلل من اعتمادهم على المترجمين ويسهل مهامهم في المناطق التالية التي سيتم تعيينهم لها[1].

ولأن أغلب الكتابات الأجنبية حول المغرب كانت تدخل ضمن الأدب الغرائبي الكلونياني الذي يحتفي بالغريب والعجيب فقد قرر المؤلف استبعاد الكتب الروائية ذات المظهر التخيلي والتي كرس لها كتاب آخر بعنوان "المغرب لدى الروائيين الفرنسيين"، مقتصرا فقط على عرض الرحلات التي قام بها رحالون فرنسيون إلى المغرب من أواسط

[1] نجيب مبارك–الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب–استكشاف بلد عتيق–19:25.

القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين لكن بالرغم من ذلك سيواجه مشكلة عويصة تتمثل في صعوبة حصر قناة هؤلاء الرحالة بحيث انتهى إلى توزيعهم إلى غاية في الاختلاف والتنوع، أسرى ورهبان ومخبرين ودبلوماسيين ومستكشفين ومغامرين وفنانين وأطباء ورجال أعمال وصحافيين وضباط وعلماء ومجرد سياح مسكونين بالفضول وحب الاستطلاع، وغيرهم ومن خلال فصول الكتاب يقدم المؤلف عرضا وتحليلا للكتابات المختلفة التي تركها هؤلاء الرحالة.

النصوص الرحلية وسرود الأسر:

تزامن ظهور المغرب في التاريخ الأدبي لفرنسا مع ظهوره تقريبا في تاريخها السياسي فقد وجد الأدب المتصل بالمغرب منذ نشأته مثلا بصورة حصرية في الكتابات الرحلية وكان من الطبيعي تماما أن يكون الأمر كذلك، فقد كان الرحالة هم الأوائل الذين قدموا أو نشروا في العموم تلك العناصر الإخبارية التي ستشكل منها شيئا فشيئا صورة هذا البلد على أن التمظهرات الأولى لهذا الفضول نحو المغرب لن نجد تسجيلها بالضرورة في الكتابات المنشورة في المكتبات لأن ذلك لن يصير متاحا سوى في وقت لاحق فهي لم تكن في البداية سوى موضوع رسائل ومذكرات مخطوطة محفوظة في أرشيفات المكتبات، وبفضل أعمال "**دوكاستري**" الذي راجع كل المصادر القديمة لتاريخ المغرب أمكن للباحثين أن يتتبعوا خطوة بخطوة تطور علاقة فرنسا بالمغرب.

من جهة أخرى إذا غضضنا الطرف عن بعض الرحلات المنعزلة فإن معظم الأدب المتصل بالمغرب كان في نشأته مشكلا من سرود الأسر أو بعثات الافتداء[1].

رحلة أوجين دولاكروا إلى المغرب:

بالنسبة لرحلات الفنانين يعرض المؤلف للرحلة الشهيرة التي قام بها الرسام الفرنسي "أوجين دولاكروا" إلى المغرب وكانت ذات تأثير كبير على مساره الفني ففي سنة 1832 سيوافق دولاكروا على الانضمام إلى أعضاء السفارة الرسمية م.دومورناي إلى المغرب في عهد السلطان مولاي عبد الرحمان وقد كان دولاكروا حينها في الثالثة والثلاثين من عمره وقد اشتهر برسمه للوحي "قارب داني" و"مذبحة سيو" إلى جانب لوحات أخرى توطت موهبته كرسام حامل للسياسة جديدة[(2)].

وسيعود دولاكروا من رحلته هاته ليس فقط بعدد هائل من التخطيطات والرسوم التي ستصير فيما بعد موضوعا لكبريات اللوحات وأشهرها ولكنه أيضا سيحمل معه دفتر سفر سينضر بعد ذلك ضمن مذكرات الفنان وإلى جانب ذلك كان قد بعث من المغرب إلى أصدقائه بمجموعة من الرسائل وهذه المراسلات سوف تظهر بدورها في المكتبات وعبر هذه الكتابات المتنوعة يمكن تتبع خطوات دولاكروا في رحلته إلى طنجة ومكناس.

[1] نجيب مبارك–الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب–استكشاف بلد عتيق.

[2] نجيب مبارك–الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب–استكشاف بلد عتيق.

ويؤكد كتاب سيرة دولاكروا أنه رجع من سفره إلى المغرب محملا بكنوز لم تكن حياته كلها تكفيه لكي يسنفذها ذلك لأنه عاد من هناك بلوحات مربية خالصة مثل "لوحة زفاف"[1].

الرحالة الغربيون بين الخفاء والتجلي:

روايات غربية وعربية تشوه صورة العربي "**يوسف القعيد**" يرى أن العرب في الروايات الغربية غالبا ما يظهرون كحثالة ورعاع فالكتّاب الغربيون لا يهتمون برسم معالم كاملة للشخصية.

لماذا تبدو صورة العربي في الآداب الأجنبية مزيفة على حقيقتها في واقعنا؟

لماذا يحاولون تصوير العربي بأنه إرهابي متعطش لسفك الدماء حتى وإن كان يدافع عن حقوقه؟ صور كثيرة نلمحها في الثقافات الأوربية تهتم الشخصية العربية بالجهل والتخلف والجمود الفكري، حتى أنهم يتخيلون أن مصر ثلاثة أهرامات وجمال.

ويشير البعض إلى أن السبب في تلك النظرة يرجع إلى المستشرقين الذين صوروا العقلية العربية بشكل مغاير ومناف للمواقع، بالإضافة إلى بعض الكتّاب العرب الذين سعوا إلى الشهرة والمصالح الشخصية من خلال كتابة وترجمة أعمال لا تتناسب ولا تعبر عن المجتمع العربي ولا عن الشخصية العربية.

الروائي "**يوسف العقيد**" في رأيه أن العرب في الروايات الغربية غالبا ما يظهرون كحثالة ورعاع، فالكتّاب الغربيون لا يهتمون برسم معالم كاملة للشخصية، ولكن يكتفون

[1] المرجع نفسه.

باستعراض الجوانب السلبية فقط على الرغم من أن خلق شخصية متكاملة هو ما يجعل القارئ يستهوي هذا النوع من القراءات، وفي رأي الروائي والناقد "أبو العاطي أبو النجا" أن النظرة السلبية للعربي داخل الأعمال الغربية ترجع إلى عدم معرفة الأدباء بالواقع الثقافي العربي حيث أثر الاستعمار وكثافة الهجرة والعلاقات السياسية المتوترة على تقبل الآخر لشخصياتنا وأعمالنا.

وجاءت أحداث سبتمبر 2001 لترسخ الصورة السلبية في العقول الغربية عن العرب بالإضافة إلى ذلك لم تصل للغرب أعمال كثيرة من إبداعنا لكي يتعرف عليها[1].

ويضيف أدباؤنا العرب في بواكير النهضة العربية ركزوا على الإنسان الأوربي بوصفه الآخر الذي يسعى للتعرف عليه والتعاون معه وليس محاربته بالإضافة إلى أن بعض الروائيين العرب الذين يسعون إلى فرض أنفسهم على الترجمة يتجهون إلى موضوعات تستهوي بحافة الإثارة التي ترصد عيوب المجتمعات العربية لتشفع بها وهناك دار النشر الأجنبية تبحث عن نصوص تتناول موضوعات الجنس والتزمت الديني لتجذب القرّاء فيف رواية "أبواب المسجد" للكاتب "أندي ديلنز" يتحدث عن فتاة فلسطينية تعمل خادمة، ويقتل أخوها وابن الخادمة ويقتل أخوها وابن عمها بواسطة الإسرائيليين وتحاول أن تصبح استشهادية، ولم تستطع ذلك إلا بعد موافقة ولي الأمر وتأخذ إذن أحد أعضاء المقاومة الفلسطينية أنها يجب أن تأخذ إذن رجل قبل القيام بأي شيء، وأضاف غالبية الأعمال التي

[1] ميدل ايست أونلاين– القاهرة– من وكالة الصحافة العربية.

تتعرض للعرب والمسلمين تناولهم في بيئة سيئة مليئة بالفقر والجهل والقذارة، والعددي من الأعمال تتناول العداء الذي يكنه العرب لليهود وتحاول أن تجسد الخلاف الفلسطيني في صورة الخلاف الديني بين اليهودية والإسلام فمعظم الأعمال لا تفرق بين العرب على حساب مسيحي أو مسلم أو علماني بل تضع المجتمع العربي والإسلامي كله في سلة واحدة.

ويضرب مثالا لذلك برواية "البحث عن سناء" للروائي "ريتشارد زيملا" حيث يتحدث الكاتب عن حقيقة سناء الفتاة التي جاءت تطلب توقيعه على أحد كتبه ثم انتحرت، ويبحث عن أسرتها فيجد أن والدها فلسطيني "معاق" يأخذ كلاب المستوطن المقيم في الجوار اليهودي مقابل مبلغ من المال واستخدمته "حماس" للقيام بالعملية الانتحارية داخل إسرائيل لتقوم السلطات الإسرائيلية بالقبض عليه ووضعه في السجن.

ويشير "**علاء الأسواني**" إلى وجود أعمال ركيكة تقدم صورة ذهنية خاطئة مثل الاضطهاد والأقباط والمرأة في العالم العربي وللأسف وسائل الإعلام الغربية تروج وترسخ هذه وتزعم بأن هذا عصر العمالقة قد ولّى وانتهى، فمن خلال تواصله مع القارئ الأوربي أدركت أن هناك صورة نمطية عن الإنسان العربي فهم يحكمون على الأديب أو الإنسان العربي باعتباره أنه يمثل كل المنطقة العربية ولا يمثل نفسه فقط ولذلك عندما يتورط أي شخص عربي في عمل إرهابي أو حتى يصرح بتصريحات عنيفة يتهمون كل العرب بالإرهاب ويكتبون عنه صفات غير موجودة فيه.

وهذا يوضح نظرتهم "لولي الأمر" فكتبوا عنها بصورة خاطئة وهذا دليل على عدم معرفة من يكتبون عن العرب بالصورة الحقيقية لمن يكتبون عنهم.

انتقاد مبالغ:

ويرى الناقد "**محمد عبد المطلب**" أستاذ النقد الأدبي في كلية الآداب جامعة عين شمس، أن بعض المفكرين العرب المرتبطين بالغرب يسعون إلى انتقاد الأوضاع العربية بصورة مبالغ فيها وهؤلاء الكتّاب يبالغون في تصوير السلبيات مثل جرائم الشرق والختان، واهتم بها الغرب كثيرا بالإضافة إلى ذلك فالكتّاب الغربيون يتناولون شخصية ضعيفة تؤمن بالخداع والخزعبلات والعفاريت.

- الجزائر في أدبيات الرحالة الانجليز:

التساؤل الذّي طرحه الأستاذ "عبد الله الركيبي" على نفسه عندما أراد أن يصول ويجول في هذا الحقل يقول: ألم يكتب الانجليز عن الجزائر؟

عندما احتلت الجزائر أطرافا من التراب الجزائري لدوافع كثيرة دينية، واقتصادية وحضارية وجغرافية. "وهذا ما دفع بالباحثين والرحالة والمستشرقين إلى أن يولوا وجوههم شطر الجزائر، يدرسون ويسجلون ويكتبون المؤلفات من هذا البلد وعن تشبثه بحريته وسيطرته على المتوسط ولسوء الحظ، فإننا في الجزائر لم نهتم بهده الرحلات التي قام بها الفرنسيون في بلادنا ولست أدري لماذا؟ واهملناها بلا سبب مقنع بل أننا لم نهتم برحلات قام بها كثير من الغربيين وربما تفاجأ عندما نعرف انّ هناك "سويديين" قاموا برحلات إلى بلادنا

رغم أن السويد "تبدوا بعيدة عن ان تهتم بالجزائر"، ومع ذلك فهناك قلة نادرة اهتمت بهؤلاء الغربيين[1]. أمثال الدكتور "**أبو العيد دودو**"، الذّي عني بما كتبه الألمان في القرن الماضي عن الجزائر، ومثله الأستاذ إسماعيل العربي، وقد اهتم هذا الأخير بالرحلات عامة شرقا وغربا.

أما فيما يخص بالرحلات "الانجليز" إلى الجزائر فإن بعض هذه الرحلات قد تمت في القرن الماضي وبعضها الآخر انجز قبله وفي القرن الحالي أيضا وحتى أثناء ثورة نوفمبر 1954.

" وفي اعتقاد الأستاذ "عبد الله الركيبي" أن هذه المؤلفات تفيد المؤرخين الذين تعينهم المصادر المتعددة والنظرة المختلفة، فهناك هواة ومحترفون أعدوا هذه الدراسات أو سجلوا انطباعاتهم العابرة أو تعمقوا في ملامح الواقع الجزائري في فترات كثيرة على مدى قرنين كاملين من الزمن، أو أكثر من ذلك[2]. كذلك الروائيون وخاصة الذين يكتبون الرواية التاريخية يمكنهم أن يستفيدوا من هذه الكتب، فتساعدهم على وصف الطبيعة في ذلك الوقت أو البيئة الجغرافية والاجتماعية في أمكنة محددة وأزمنة متعددة.

[1] عبد الله الركيبي، "الجزائر في عيون الرحالة ,Algneriain Eyes of Englich travers دار الحكمة، 91 شارع ديدوش مراد، الجزائر العاصمة، 1600، ص08، الانجليز، 19999.

[2] عبد الله الركيبي، "الجزائر في عيون الرحالة الانجليز– ص 10.

في هذين القرنين مرت الجزائر بأحداث سياسية واجتماعية وثقافية متنوعةيمكن رصدها من خلال هذه الرحلات، كما أن هناك تقاليد تغيرت أو تطورت أو اندثرت إلى جانب أن بعضها استمر حتى اليوم[1].

كل هذه الملامح سجلها الكتاب بالتفصيل أحيانا، ويمكن لعالم الاجتماع أن يجد فيها ما يلائم تخصصه فيقارن بين الأمس واليوم، حتى يبين لنا الصورة الحية عن حياة الناس في هذه المراحل التي مر بها الشعب الجزائري.

إلى جانب هذا كله معلومات كثيرة نقلها هؤولاء الرحالة وركزوا اهتماماتهم عليها لغرض ما، فتنوعت إجتهاداتهم، مشاربهم ونظرتهم إلى واقع الشعب الجزائري وطموحه حتى إن بعضهم اهتم بالتسلية فكانت كتاباته للمتعة والترفيه خاصة حين يصف جمال الطّبيعة الزاخرة بالألوان والتنوع من سماء زرقاء وبحر جميل وصحراء ساحرة وشمس ساطعة وكرم ملحوظ وشجاعة نادرة. وغير ذلك من قيم وأخلاق عرف بها الشعب الجزائري، إلاّ أن بعض من هؤولاء الرحالة لا يتعاطفون مع واقعنا وشعبنا الآخر بشكل واضح، ومن الذين تعاطفوا مع الواقع الجزائري أنذاك الرحالة "**ليدر**"... الذي كتب عن مدينة بسكرة وضواحيها، وأنحى بالائمة على أولئك "الذين لا يعرفون شيئا عن الذهنية العربية ومرونتها وطبيعتها، وهناك يقول "**عبد الله الركيبي**": "إنني حاولت الوصول لإلى ذلك أو قد حصلت على مفتاح السر الذي لم يصل إليه أوروبي قبلي..."[2]

---

[1] المرجع نفسه، ص 11.

[2] عبد الله الركيبي،"الجزائر في عيون الرحالة"، ص 12.

ويهاجم الكتاب الذين يتعصبون ضد العرب في كتاباتهم للدفاع الحاد عن المسيحية ومحاولة هدم تعاليم الإسلام ومثله صاحب كتاب "جولات في الجزائر وما حولها" الذي لاحظ هو الآخر الفرق بين الشعبين الجزائري والفرنسي والتناقض بين تفكير هؤلاء وأولئك، الذي جعل من الصعب التساكن بين الاثنين فيقول: "أنّ منهاج الحياة وطرائق التفكير للشعبين متضادة، فكل ما يتمسك به العربي يحتقره الفرنسي وكل ما يهتم الفرنسي يرفضه العربي...."

رحلة "**إيزابيل إيبرهاردت**": "**Isabelle Ederhardt**" إلى الصحراء الإفريقية التي خلدتها في عملها "بلاد الرمال" 1914، حيث تقول: "إني بعيدة عن الحضارة الأوروبية ومهازلها المنافقة، إني وحدي في دار السلام، في الصحراء حرة، وأحوال صحية جيدة... الوادي البلد الذي لا تعد قبابه... أريد شراء أرض صالحة للزراعة، وأجعل فيها جنانا بها بئر ونخل.." [1]

لذلك نجد الرحالة وهو يصف ما هو أجنبي عنه قد يعقد مقارنة بينه وبين المكان النى ينتمي إليه أصلا.

وهنا نجد "**إيزابيل هاردت**" تفضح عن نوع من التناقض والصراع الذي راح يجول بداخلها، فتقول "أنا بجسدي في الغرب أقيم، ولكن روحي إلى الشرق تتوق، وقلبي في اسطنبول وقلبي في وهران.

[1] حفناوي بعلي، أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2004، ص 124.

واتعربب في الأخير عن أملها في أن تدفن في إحدى مقابر المسلمين، فتقول: "اتمنى أن أدفن في مقبرة عربية بعد موتي، لأنّ مقبرتنا كئيبة حزينة..."[1]

ما يمكن أن يقال عن هذه الرحلات فإنها إيجابية في طرحها للصورة، حيث يتخللها الإعجاب بجمال الشرق وعظمة الصحراء الجزائرية وطيبة أهلها.

إذا كان هؤولاء الرّحالة يصرخون أحيانا أو يتكتمون أحيانا أخرى أو يعمدون إلى التلميح مرة ثالثة سواء كان ذلك تعاطف معنا أو غيرها فإنّ الأمر الهام هو الإطلاع على ما كتبوا ثم الحكم عليه من وجهة نظرنا نحن.

[1] المرجع نفسه، ص 125.

خاتمـــة

خاتمة

إن الصورة أن استطاعت أن تفتك لذاتها حضورا قويا في مجالات البحث الأدبي المقارن، بما اتسمت به من طابع استراتيجي.

للصورة بعد فني وجمالي فيما يتعلق بمسألة تمثيلها وتشكيلها عبر المتخيل لدى الآخر، غير أن هذه الصورة قد تكون سلبية مخلوطة تحتاج إلى مراجعة، بحكم الملابسات الاجتماعية والسياسية التي عملت على صياغتها من أجل ترسيخ تصور ما، لخدمة أغراض خاصة وأطماع أكثر خصوصية.

للرحلات والاستشراق دور في تشكل الصورة تتحقيق حضورها في متخيل الآخر.

الصورة لا تقتصر على الأدب فقط بل تشمل حقولا معرفية مختلفة.

الرحلة هي انتقال وترحال من موطن لآخر بالإضافة إلى المغامرة والمخاطرة ومرور بتجارب وتعتمد على المشاهد في التعريف وثقافة الآخر.

الرحالة مهما حاول لا يمكنه أن يعطي صورة حقيقية عن الآخر، حتما أنّ الصورة ستنحرف عن واقعيتها، لأنه لا يراعي فيها الموضوعية، بل يرااعي المتلقي، وطبيعته السيكولوجية والسوسيولوجية.

تبقى الرجلة تلك الممارسة المفيدة لما تفتحه من آفاق للاتصال والتفاهم بين الشعوب.

الرحالة هي قناة استراتيجية تفسح المجال للتعرف على شعب ما سواء ما تعلق بخصوصياته المادية من عادات وتقاليد.

أدب الرحلة أدب يكشف شخصية الرحال في وصفه للطرف الآخر.

الصّورة التي أنتجتها الآداب الأجنبية بمثابة تخيير وتزييف للحقائق وخلوها من الموضوعية مما ولد سوء فهم وعداء بين الدول والمجتمعات.

للأدباء الرحالة إسهام كبير في تشكيل صورة أمة في أدب أمة أخرى من خلال رصدهم لطبيعة العلاقات التي تسود بين الأمم والشعوب.

الصورة التي تعطيها الأن للآخر هي صورة مشوهة وعدائية مما يرسم ملامح الذات وتحقير من الطرف الآخر.

هناك من قصدوا بلاد الشرق وعائوا بين أهليها ومنهم من دان بديانة أهلها ودفن في جوف ترابها.

ولهذا نقول أن الدّراسات الاستشراقية ليست كلها بريئة دافعها دراسة الحضارة الإسلامية وعلوم العرب، بل كان لها امتدادات تحيل إلى خدمة أغراض استعمارية.

نجد أن الرحالة الغربيين نقلوا إلينا صورا عن العادات والتقاليد والآثار والشواهد وغيرها، وحتى أنهم درسوا نفسية العربي مثل نفسية الشعب الجزائري، والتطورات التي تطرأ عليه، ونقلوا إلينا مشاعرهم نحو الجزائر والتي تتراوح بين الإعجاب والخوف والحقد.

وهنا نجد بعض الرحلات التي قام بها أدباء ورحالة غربيون لأغراض معينة مثل التجسس ومعرفةخصوصيات المجتمع الجزائري وأسراره.

لا توجد عداوة أو ماض مؤلم بيننا وبين الإنجليز، ولعل هذا الجهد يدفع باحثينا وكتابنا ومثقفينا إلى أن ينقبوا عن مثل هذه الكتابات ويبرزو تعاطف أصحابها معنا.

إن قراءة كتبهم هذه قد تدعم علاقتنا معهم مستقبلا مثلما فعل مستشرقوهم في العقود، بل وفي القرون الماضية، بصرف النظر عنا أطلقوا من أحكام قاسية أحيانا عن تاريخنا وحضارتنا وعقيدتنا.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم –
كلية الأدب و الفنون
تخصص أدب مقارن وعالمي

قسم الأدب العربي

مذكرة التخرج لنيل درجة الماستر في الأدب العربي

الموسومة بـ:

صورة العربي في مذكرات الرّحالة الفرنسيين
فرنسا – أنموذجا –

من إعداد الطالبة:
✓ تبتي فتيحة

تحت إشراف الأستاذ:
* يايوش جعفر

السنة الجامعية: 2017م - 2018م

* الشكر *

قال رسول الله ﷺ :

" مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاس لَمْ يَشْكُرْ الله "

لله الفضل من قبل ومن بعد، فالحمد لله الذي منحني القدرة على انجاز هذا العمل المتواضع، وبعد:

أتوجه بجزيل الشكر وفائق التقدير والإحترام وأسمى معاني العرفان إلى الأستاذ "يايوش جعفر" على مساعدتي في إنجاز هذا العمل، وعلى جم صبره وجهوده ونصائحه الصائبة وأسأل الله أن يجزيه عني خيرا وأن يجعله دخرا لأهل العلم والمعرفة.

كما أتقدم بالشكر إلى كل أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها وإلى كل من ساعدني عن قريب أو بعيد.

* الإهداء *

بسم الله الرّحمان الرّحيم

والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين الحبيب المصطفى ﷺ بحول الله وقوته وبعد طول سنين.

أشكر الله عز وجل الذي وفقني لإتمام هذه المذكرة على أحسن الأحوال.

إلى رمز الحب والحنان والوفاء أمي الغالية أطال الله في عمرها، وإلى من علمني الأخلاق والتواضع أبي العزيز الذّي فتح لي باب العلم إلى أختايا العزيزتان، وكل من ساهم معي في إنجاز هذا العمل ولو بكلمة طيبة أو بدعاء وإلى كل من نسيهم قلمي ولم ينساهم قلبي.

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والصلاة والسلام على حبيبنا محمد ﷺ أما بعد:

يعتبر البحث في حقل الصورة من أهم حقول البحث في الأدب المقارن كونه يحيلنا على أفضلية لا حصر لها في مكاشفة تصورات الآخر بشأن الأناء مع الرغبة في تصحيح الطروحات المغلوطة، من هذا المنطلق راحت البحوث في حقل الصورائية تفتك قيمتها وبعدها الإستراتيجي في توجيه العلاقات بين الشعوب في ضوء آدابها ومنجزاتها كما تسهم في إغناء شخصية الإنسان، فيزداد فهما لذاته وللآخر معا. كما تستطيع أن تسهم في توسيع افق الكتابة والتفكير والحلم، مما يجعل منظومة المفاهيم التي يتبناها الإنسان أقل صلابة ومرونة وحيوية، مما يؤدي إلى نضج الشخصية الفردية على المستوى الإنساني والمعرفي، فيتم التعرف على الذات والآخر في الوقت نفسه، هذا على المستوى الفردي، أما على المستوى الجماعي فتفيد دراسة صورة الآخر تصريف الانفعالات المكبوتة تجاه الآخر، وفهم وتحليل أوهام المجتمع الكامنة في أعماقه، فتعري الذات والآخر معا وتساهم في إزالة سوء التفاهم الذي ينزع إلى إعلاء شأن (الأنا) وتحقير الآخر، كي تؤسس لعلاقات معافاة من الأوهام التي هي نتيجة للتشويه السلبي والإيجابي لصورة الآخر.

لذلك ارتأينا في هذا البحث إلى تقديم دراسة تتمحور حول صورة العربي في مخيال الغربي في سياق تحري المنهجية المعمول بها في دراسة الصورة من منظور الأدب المقارن، ذلك أنها قناة من قنوات التأثير على الصعيد العالمي.

وهنا في هذه الدراسة أخذنا صورة العربي في مذكرات الرحالة الغربيين وتسليط الضوء على فرنسا كنموذج من خلال فرز وتمحيص الأعمال الأدبية والفكرية التي أنتجها هؤلاء الرحالة بطرح جملة من الإشكالات، ماذا نعني بالصورة في الأدب المقارن؟ وما هي أنواعها ونشأتها؟ أما الإشكاليتين الأساسيتين اللتان بني عليهما هذا البحث: ما هي الصورة الحقيقية للعربي عند الآخر؟ وما هي الصورة التي شكلها الرحالة الفرنسيين للعرب آنذاك؟

أما الأسباب التي قادتنا غلى اختيار هذا الموضوع هو أنه يطرح فكرة جد هامة ألا وهي النظرة التي ينظر إليها الأوربي إلينا والصورة التي استنبطها هؤلاء الرحالة الغربيين ورغبة المتلقي في معرفة هذه الصورة وخصوصا المتلقي العربي، ولأن الصورة لها هدف واضح في تشكيل الفعل الثقافي في سياق ثنائية الأنا والآخر، وكان تحليلنا لهذه الإشكاليات، والبحث في إجابة مقنعة لها وقد قسمنا بحثنا هذا إلى ثلاث فصول مع مدخل ومقدمة وخاتمة ووقفنا في الفصل الأول عند مفهوم أدب الرحلة، ونشأتها عند العرب، وأنواع هذه الرحلات، أما فيما يخص الفصل الثاني فيتناول صورة العربي في مرآة الآخر أخذنا فيه صورة الآخرين، وأخذنا الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، وصورة العربي بين فرانس كافكا وألبير كامو، وتطرقنا إلى الدراسات الاستشراقية، أما العنصر الأخير هو دراسة صورة الآخر في الأدب العربي، والصورة بين الأنا والآخر، أما الفصل الثالث فيتضمن صورة العرب عند الرحالة الفرنسيين حيث أخذنا بعض الرحلات التي قام بها الفرنسيون في بلاد المغرب واستعنا ببعض المجلات من وكالة

الصحافة العربية، وقد اقتضت طبيعة البحث الاعتماد على منهجين التاريخي والتحليلي اللذان يقتضيان جمع الحقائق التاريخية وتحليل الأعمال الأدبية.

ويضاف إلى ما تقدمه خصوصية البحث في حقل الصورائية وما تنطوي عليه من صعوبات، تتصل بضبط المادة وتصنيفها وتحليلها، وقلة المراجع في هذا الحقل خاصة الكتب المترجمة، ولأن البحث يتحدد بطبيعة مصادره ومراجعه المتصلة اتصالا وثيقا بموضوعه، كانت هذه المرحلة عتبة أخرى كان لابد من اجتيازها وقد استغرق ذلك فترة من الوقت قضيناها في التنقل إلى عدد من المكتبات، والاطلاع على دراسات أكاديمية مسابقة، و من هذه المصادر والمراجع المعتمد عليها في هذا البحث "الأدب المقارن" يوسف بكار وخليل الشيخ، والأدب العام المقارن "لدانييل هنري باجو، والجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان "لأبو العيد دودو".

وقد حاولت الاجتهاد في سبيل الله إنجاز هذه الدراسة قدر المستطاع، إلا أننا لا ندعي أن دراستنا المتواضعة قد استطاعت تسجيل إسهام حقيقي في تقديم إجابات لمختلف الإشكالات التي طرحنها، وأخذنا على عاتقنا من بداية البحث إثارة جملة من القضايا والإشكاليات كمحاولة لفتح باب النقاش

ويرجع الفضل في اكتمال لبنات هذا البحث بعد فضل الله سبحانه وتعالى إلى الأستاذ المشرف "جعفر يايوش الذي منحنا من وقته وجهده، فكان نعم المشرق والناصح والموجه فله من جزيل الشكر وجميل العرفان راجين من الله أن يحفظ فضله. كما لا يفوتنا في الأخير أن أتوجه بجزيل الشكر إلى السادة الأساتذة أعضاء لجنة

المناقشة التي ستقوم بمهمة القراءة والنقد والتمحيص في هذا العمل، وتسديد هفواته، وتقويم ما اعتدى ثناياه من الآن على أمل أن تكون قد أصبنا فيه الحقيقة التي ناشدناها منذ البداية اشتغالنا على هذا العمل الذي نتمنى أن يكون ولو لبنة صغيرة تضاف إلى رصيد مكتبتنا، ومرجعا يعود إليه طلبة العلم في المستقبل.

مدخل

يقول عز وجل: ﴿ ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [1]

لقد خلق الله عز وجل عباده وميّز بينهم إذ نجده ز وجل يصرّح بذلك تصريحا واضحا، فالاختلاف بين الأمم يكون في أخلاقها وطبائعها، كما تختلف في مناهي الحياة كلها، ومن هنا فإنّ قليات الأمم تختلف اختلافا واضحا في نفسها، وسلوكها، فإذا أردنا التّعمق في الآداب القومية المختلفة نجد أنّ كل أدب يحتوي على نوعين من الصّور.

. نوع يتعلق بصورة كل شعب في أدبه القومي.

. نوع يتعلق بصورة الشعوب والأمم الأخرى إلى الآداب الأجنبية.

وهذه الدّراسة بطبيعتها تتخطى حدود الآداب القومية فقد لاقت اهتماما كبيرا من قبل علماء الأدب المقارن في وقت مفكر. فقد وضعوها كمبحث ضمن ميادين البحوث المقارنة وقد أطلقوا عليها تسمية "الصّورولوجيا" لكن لابد أن نقف عند نقطة جدّ هامة ألا وهي طريقة تناول الصور، إذ أخذنا مثالا أي عمل أدبي تناول فيه الأديب قضايا مجتمعة أو حضارة بلاده مثلا، فإنّنا نجده يختلف عن عمل أدبي تناول فيه الأديب قضايا مجتمعه أو حضارة بلاده مثالا فإننا نجده يختلف عن عمل أدبي تناول فيه نفس القضايا أو نفس الحضارة من خلال أديب أجنبي.[2]

[1] سورة الجاثية، الآية 28.

[2] عبود عبده، الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، مطبعة المدينة، سوريا، 1997م/ 1998م، ص371.

ونأخذ على سبيل المثال ما قدمه المستشرقون حول الحضارة العربية الإسلامية زيفوا الحقائق حول العروبة والإسلام ونأخذ من بين هؤلاء المستشرقي الأمريكي "**واشنطن إيرق نج**" الذّي حاول وضع دراسات حول سيرة النّبي ﷺ وركزّ على قضية الجبرية في الإسلام.

واعتبرها نبذا أساسيا من نبوذ العقيدة الإسلامية، واعتبر الرّسول ﷺ أنّه قد فرضها لإنجاح حروبه مع العدد وذلك يوم أقنع المقاتلين أن مصيرهم قد أدنى قد أقره الله سبحانه وتعالى مسبقا فهو يدفعهم إلى ساحة المعركة دون أدنى خوف من الموت طالما أنهم يستشهدون ويفوزون بالجنة [1] ومن هنا نلمح تلك الصّورة العدائية التّي قدمها أدب قومي ضد شعب آخر قد ظهر كثيرا من القرون الوسطى نظيف إلى المثال السابق صورة العرب في الأدب الصّهيوني هذا من الجانب السّلبي.

أما الجانب الإيجابي يتمثل في تلك الصّورة الإيجابية التّي يرسمها أدب قومي معين لأمة أجنبية مثل هذه الصّور، صورة ألمانيا النّازية في الرّأي العام العربي، فكان الأديب في بعض الأحيان أعماله بين أفكاره وأرائه سواء بالسّلب أو بالإيجاب لصورة أي بلد أجنبي من هذا المنطلق ظهرت دراسات جديدة تهتم بهذا المجال لتزيح الغموض وتوضح الأمور.[2]

فظهرت ما تسمى بالصّورولوجيا أو الصّورائية كحقل جديد على يد علماء الأدب المقارن وضمّه إلى ميادين البحوث المقارنة، وقد شهد هذا النّوع الأبحاث المقارنة.

---

[1] هيكل حسين محمد: جياة محمد، ط: 13، مكتبة النّهضة المصرية 1968، ص549 . 550.

[2] ناجي عويجان، تطور صورة الشّرق في الأدب الانجليزي، ترجمة تالاصباغ، المنظمة العربية للتّرجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص201.

ومن هنا نستطيع القول أنّ الصّورة التّي أنتجتها الآداب الأجنبية بمثابة تخيير وتزييف لحقائق الشّعوب والأمم والحضارات، مما ولد سوء فهم بين الدّول، والمجتمعات وهذه التّي طرحت حول العلاقة الرّابطة بين الصّورائية ودراسة الأدب وعن قدراتها حول معالجة وفهم الأعمال الأدبية، وهذه الدّراسة تقيد الأبحاث السياسية، والاجتماعية وكذا الدّراسات الصّورولوجية أن تميز نفسها من استقصاء الصّور، والقوالب الجامدة التي يجربها علماء النّفس، والاجتماع والسّياسة وترتكز على الجوانب الأدبية لصور الشّعوب الأجنبية في الآداب القومية.[1]

إنّ دراسة الصّورة لم تقتصر على الأدب بل شملت حقولا معرفية مختلفة أيضا، لهذا كانت مثل أية دراسة في مجال العلوم الإنسانية من بعض الانحرافات، فقد ركزت بعض الدّراسات اهتماهما على جماليات النّص الأدبية. دون الانتباه للتّحليل الثّقافي التّاريخي في حين وجدنا دراسات أخرى تسلط الضّوء على الجوانب التّاريخية والثّقافية وتهمل الجانب الجمالي للأدب، حتى وجدنا بعض الدّراسات قد تحولت إلى احصاءات اختزالية لصورة الأجنبي فسيطرت عليها الآلية والسّرعة، ممّا أبعدها عن روح الفن وعمق المعرفة العلمية.[2]

[1] عبود عبده، الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية، ص371.

[2] ماجد حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. سوريا. 2000. ص239.

أ) تعريف مصطلح دراسة الصّورة الأدبية:

تعد دراسة الصورة الأدبية (أو الصّورولوجيا imagologie) أحد فروع الأدب المقارن، وهي تحتاج مثله إلى أدوات النّاقد من معرفة بالعلوم الانسانية (التاريخ، علم الاجتماع، علم النّفس...) والمناهج النّقدية الحديثة كما تحتاج إلى مؤهلات ذاتية كالذّوق والحساسية وغير ذلك من أدوات تساعد على تلمس الجمال.

وقد شهد هذا الجمال ازدهارا ملحوظا في هذه الأيام بسبب رغبة بعض المثقفين في سيادة مناخ من التّعايش السّلمي، إذ أنّهم يبحثون عن دور فاعل في الحياة كي يقاومو لغة العداء التّي قد يشيعها المتعصبون والسياسيون.[1]

وقد لوحظ أنّ الصّور التي تقدمها الآداب القومية للشعوب الأخرى تشكل مصدرا أساسيا من مصادر سوء التّفاهم بين الأمم والدّول والثّقافات سواء كان هذا إيجابيا أمر سلبيا، ونعني بسوء الفهم السّلبي ذلك النّوع النّاجم عن الصّورة العدائية التّي يقدمها أدب قومي ما عن شعب آخر أو شعوب أخرى...[2]

إنّ المقصود بسوء الفهم هذا تقديم صورة غير موضوعية للذّات وللآخر في الوقت نفسه، مع أن الذّات تدرك نفسها حين تتعامل مع الآخر إذ تتشكل ويعاد تشكيلها في المواجهة مع الآخر، لذلك فإن أي تشويه في النّظرة للآخر كامن في الذّات، وكما يرى **ألان**

[1] . محمد زكي العشماوي. دراسات في النّقد المسرحي والأدب المقارن، دار الشّروق، القاهرة، دط، 1994، ص 39.

[2] ماجد حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص. 241

تورين في كتابه "نقد الحداثة" ليس هناك من خبرة أكثر أهمية من العلاقة مع الآخر إذ يتشكل الطّرفان كذوات، وحين يتم الاعتراف بالآخر (أي بكونه ذاتا) تندفع الذّات إلى المشاركة في جهود الآخر من أجل التّحرر من العراقيل التي تمنعه من الحياة الانسانية الكريمة، وهذه الغاية لا تكون فردية فقط، لأنّ حياة الأنسان لا تزدهر إلاّ إذا عاش حياة اجتماعية متفتحة على الآخر مثلما هي متفتحة على الذّات. وبالتالي تمنعها من التّفاعل مع الآخر، بل قد تصوّره مدمرا لكينونتها، فيكون رد فعلها تدميرا للآخر أو تشويها وإقصاء له.[1]

إذ كل صورة لابد أن تنشأ عن وعي مهما كان صغيرا، بالأنا مقابل الآخر، وهي تعبير أدبي مستمد من نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانيين مختلفين (أي المكان الذّي تنشأ فيه الصّورة، أي بلد النّاظر والمكان الذّي تقدمه الصورة، أي بلد المنظور إليه وكثيرا مانجد دلالة توحي بالتباعد بين (الأنا) و(الأخر) فتؤسس لسوء الفهم، وهكذا يمكننا أن نعد الصّورة جزءا من التّاريخ بالمعنى الوقائعي والسّياسي، أي جزءا من الخيال الاجتماعي والفضاء الثّقافي أو الإيديولوجي الذّي تقع ضمنه، فتعرف على الهوية القومية، كما تتعرف من خلال نظرتها للآخر متى تقف مواجهة له؟ هل الإعتقاد الدّيني والمواقف السّياسية والاقتصادية دور في العداء؟ هل تعاليم الدّين هي المسؤولة عن هذا العداء أم تسييس الدّين؟ متى يكون الآخر منا قضى للأنا، ومتى يكون ندا مكملا لها؟[2]

[1] محمد زكي العشماوي. دراسات في النّقد المسرحي والأدب المقارن، ص 40.

[2] ماجد حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص 242.

كما تقدم لنا دراسة صورة الآخر أثر العلاقة التّاريخية بين الأنا والآخر في رسم ملامح مشوهة للذّات والآخر ! أي تبرز أثر العلاقات العدائية في تشكيل صورة غير انسانية، فتنزه الذّات وتحقر الآخر ! ونحن اليوم أحوج ما نكون لدراسة الصّورة التّي رسمها الأدب الحديث للآخر، دون أن نغفل عن دراسة صورة الأنا في أدب الآخر.[1]

أعتقد أنّنا أحوج ما نكون إلى توسيع مصطلح الأخر، ليس فقط على الصّعيد (شرق وغرب) بل على الصّعيد الإنساني (امرأة، عبد) أيضا.

ب)نشأة الصّورائية:

إنّ البدايات الأولى لنشأة الصّورائية تعود إلى النّصف الأول من القرن 19 عندما قامت الأدبية الفرنسية الأصل "**مدام دي ستال**" بزيارة دامت وقت طويلا إلى ألمانيا. وقد تزامن ذلك وتصاعد الصّراع بين الشّعبين الفرنسي والألماني.[2]

فالفرنسيون يصرحون أن المجتمع الألماني يتميز بالبداءة سواء في اللغة المستعملة أو في الرّصيد الثّقافي حيث أقرّوا أنّه لا وجود لأي آثار أدبية أو ثقافية تستدعي العناية والاهتمام. وهذا اللّفظ من مكانتهم وتحفيزهم إذ أنّ السبب واضح ألا وهو الاستعمار بكل سهولة في حين **مدام دي ستال،** رأت أنّ الشّعب الألماني يمتاز بكل الصّفات الجميلة المعاكسة لكل ما دعاه الفرنسيون. وقد جاءت الكتابة الفرنسية بمناقب الشعب الألماني من

[1] محمد زكي العشماوي. دراسات في النّقد المسرحي والأدب المقارن، ص 41.

[2] دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السّيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، دت ص. 89.

طيبة واستقامة وصدق وبجمال طبيعة ألمانيا ولا سيما وادي نهر الراين والغابة السّوداء وبغنى الأدب الألماني والمستوى الرّفيع الذّي بلغته الفلسفة الألمانية.[1]

فسعت **مدام دي ستال Madame De Stal** إلى تصحيح ما في أذهان الفرنسيين من صور مشوهة عن الألمان وبلادهم وثقافتهم وكانت محصلة الرّحلة كتابا عنونته ب " عن ألمانيا" ويعد هذا الكتاب بما يعرف بالدّراسة الأدبية للآخر "الصّورولوجيا".

اشتهرت **Madame De Stal** بسعة إطلاعه على الآداب الأجنبية عامة والأدب الألماني خاصة، وانتقدت أولئك الذّين يحتقرون الآداب الأجنبية ولا يهتمون بدراستها ودعت إلى دراسة الأداب في لغاتها الأصلية.[2]

استشهدت بالآداب الأجنبية لتبين وجوه تشابهها ووجوه اختلافها، لعب مؤلفها "عن ألمانيا" "**De M'Allemagne**" دورا هاما في مصير الدّراسات المقارنة وقد ثبت فيه أفكار جديدة استقتها من الأدب الألماني.

. من أهم الدّراسات في هذا المجال "علم الصّورة".

- ✓ رسالة "**ماريو فرانسوا غويار**" "**Mario François Guyard**" صورة بريطانيا العظمى في الرّواية الفرنسية 1914 . 1940.
- ✓ رسالة "**ميشيل كادو**"صورة روسيا في الحياة العقلية الفرنسية 1839 – 1856.

[1] دانيال هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص89.

[2] المرجع نفسه، ص 90.

✓ رسالة "أندري مونشو" "Andrio Moncho" ألمانيا أمام الآداب الفرنسية من عام 1814 . 1835.[1]

ج) أنواع الصّورة:

أ. الصّورة السّلبية:

إنّ غياب الموضوعية في رصد الصّور والتّعبير عنها عموما هو ما جعل الأديب أو الرّحلة أو المستشرق يقدم صورة سلبية عن بلد ما على الرّغم من أنّه قد زاره، وتعرف عليه عن قرب، ولذلك نجد **إدوارد سعيد** في كتابه الشّهير "الاستشراق" وهو يوضح مفهوم الشّرق عند المستشرقين يقول " أن الشرق الّي يتحدث عنه المستشرقون غير موجود، فهو شرق من صنع المخيلة الغربية. وإذا كان الحديث عن سلبية هذه الصّورة معتذرا فإنّ حديثنا عن الرّحلات التّي قام بها الغربيون إلى الوطن العربي سيفضي إلى بناء ذلك التّصور ولو بشكل جزئي".[2]

ومن بين الرّحلات التّي ساهمت في تشكيل صورة سلبية عن الجزائر وساندت الاستعمار الفرنسي وأيدت نفوذهم وسيايتهم بدعوى نشر الحضارة والتّقدم في الجزائر وهي كثيرة مثل:

1. كتاب "الجزائر على حقيقتها" للمؤلف "**م . دستوت**" **(M. DSTOTT)**.

[1] ريمون طحان، الأدب المقارن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1972، ص 23.

[2] يوسف بكار . خليل الشّيخ. الأدب المقارن، الشّركة العربية المتحدة للتّسويق والتّوريدات بالتّعاون جامعة القدس المفتوحة، القاهرة، مصر، 2009، ص 211.

2. كتاب "إفريقيا المستنيرة" للمؤلف "**هـ. ت كيني**" (**H. T Keeny**).

3. كتاب "الجزائر اليوم" للرّائد "**قوردون كاسلي**" (**Gordon Gasly**).

4. كتاب "بلد القراصنة" للمؤلف "**إيكسان فليدنج**" (**Xan Fielding**).[1]

ولذلك نقول أن دراسة المقارن لهذه الصّورة السّلبية لها قيمتها، حيث تكشف عن تصورات الأمم بشأن بعضها البعض، حيث تكون محكومة بأفكار مسبقة أو سباقات إيديولوجية وسياسية وحضارية معينة، فلكي نصحح هذه التّصورات لابدّ من دراستها وتحليلها.[2]

ب. الصّورة الإيجابية:

إنّ الرّحلة إلى باريس من روافد احتكاك العرب بالغرب في العصر الحديث، لذلك نجد تلك الصّورة الإيجابية التّي رسمها الرّحالة العرب لهذه المدينة في أدبهم حيث امتازت بالإعجاب والنّظر إلى طبيعة هذه المدينة ووصفهم لها.[3]

ونذكر من هذه الرحلات رحلة "**الطّهطاوي**" الذّي أقام بباريس في الفترة مابين (1826 . 1831) وسجل تفاصيل هذه الإقامة في كتابة "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" وكذلك رحلة "باريس" والقارئ لهذه الكتب وغيرها قد اتجه وجهة إيجابية بكل ما تحمله الكلمة من معاني، وتتجلى هذه الإيجابية من خلال تشبيه هذه المدينة بالجنة وربطها بفكرة التّطور.

[1] ريمون طحان، الأدب المقارن، دار الكتاب اللبناني ، ص24.

[2] يوسف بكار . خليل الشّيخ. الأدب المقارن ص 212.

[3] المرجع نفسه، ص 25.

"وإذا كان الرّبط بين باريس وبين الجنة، فإنّ الرّبط بين باريس وفكرة التّقدم الفلسفي لها أبعاد، وقد تجلت هذه الفكرة في حديث "**طه حسين**" عن باريس في كتابه "الأيام" وفي "من بعيد" مثلما تحدث عنها في "زهرة العمر" و "**زكي مبارك**" في ذكرياته وبدت باريس في هذه الكتب نقطة الانطلاق حول مشروع حضاري يتفيأ للتّقدم وتكون باريس فيه ما تجسده من مبادئ فكرية نموذجا يحتذى به"[1]

أمّا إذا تكلمنا عن الرحلات أو الكتابات الغربية التّي كتبت بإيجاب عن الجزائر أو تلك التّي كتبها الغربيون بفهم ووعي كبيرين مثل:

1. بوابة الصّحراء بسكرة للمؤلف "**س. هـ. ليدر**".
2. جولات في الجزائر العاصمة وما حولها للمؤلف "**ل. ج. سيقوين**".
3. الصّحراء ملاذا للمؤلفة "**إيديت هالفورد نيلسون**" التّي تحدثت عن ثورة الأوراس عام 1916م.

وبغض النّظر عن سلبية الصّورة أو ايجابياتها فإنّ تحليل عناصرها، والبحث في ملابساتها وهو ما تحمله من دلالات ومعاني تتخطى حدود النّص المكتوب. لذلك نجدها تعبر عن تجربة شخصية للواصف مع مكان انتمائه الإيديولوجي قبل أي شيء آخر.[2]

[1] يوسف بكار وخليل الشّيخ. الأدب المقارن. ص 212.

[2] المرجع نفسه . ص . 213.

الفصل الأول

الأدب والرحلة

- مفهوم الرّحلة:

يعد أدب الرّحلة من الأنواع التي اتسمت بمميزاتها وطابعها الخاص، وذلك أنّ مضمونها يتعرض لمختلف نواحي الحياة السّياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، الثّقافية والدّينية... غير أنّ الرحلة عرفت:

أ- لغة:

جاء في لسان العرب "**لابن منظور**" إن الرّحلة مركب للبعير والناقة وجمعه . أَرْحُلٌ، ورحَالٌ الرّحْلُ في غير هذا منزل الرجل ومسكنه، وبيته، وانتهينا إلى رِحَالِنَا أي منازلنا، ورَحَلَ البعير يَرْحَلُهُ فهو مرحول ورحيلٌ.[1]

وفي معجم **مقاييس اللغة (لابن فارس)**: رَحَلَ: الرّاء والحاء واللاّم[2] أصل واحد يدل على مضي في سفار ويقال: رحل . يرحل . رحلة...، والرّحلة الارتحال... ورحلة إ أضعنه من مكانه ومعنى هذا أنّ كلمة اجتمعت فيها هذه الحروف لم يخرج معناها عن الحركة، والسير والانتقال ونجد في كلامه هذا اتفاقا مع ما قاله "**ابن منظور**" بل هو تكرار له، ويشير "**الفيروزبادي**" في "قاموس المحيط" إلى دلالة الرّحلة بقوله، ارتحل البعير سار ومضى والقوم عن المكان وانتقلوا.[3]

ومن هنا نستكشف أن دلالة رحل في لغة العرب تلخصت في السّير والانتقال والحركة.

---

[1] ابن منظور دار العرب . ج11 . دار صقر . بيروت، ط، 1994، 3، ص276.

[2] ابن فارس (أحمد) مقاييس اللغة . المجلد الثاني، دار الجيل . بيروت. د . ت ص 446.

[3] الفيروز ابادي القاموس المحيط. ج . 3. دار الإحياء للكتب العربية بيروت. ط. 1985. 394.

وتجدر الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم حفل بالعديد من الأمثلة التّي تشير إلى هذه المعاني على الرّغم من عدم ورود لفظ رحلة فيه إلاّ قوله عز وجل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [1]

ففي هذه السّورة ارتبطت هذه الرّحلة بالتجارة التّي كان يقوم بها أهل مكة صيفا إلى اليمن وشتاءا إلى الشّام.

كما ورد لفظ "رحل" في الكتاب المنزه ولكن بمعنى البعير (الرّحلة) في قوله عز وجل وعلا: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ [2]

ب- إصطلاحا:

تعددت مفاهيم الرّحلة في ال إصطلاح إلا أنّها تصب كلها في قالب واحد يمكن القول بأنّه فن التّعبير عن مشاعرختلج في نفس الأدب المغترب في كل ما يراه ويعايشه يحكي من خلاله أحداث سفر ومشاهده وعاشه بأسلوب أدبي شائق يغري القارئ بمواصلة القراءة

[1] سورة قريش الآية 1، 2، 3،4،4.

[2] سورة يوسف الآية 70.

فالرّحلة إذا هي انتقال من مكان إلى آخر، وهذا هو المعنى الأول، أمّا المعنى الثاني هو أن الرّحلة كتابة خطاب وهو المعنى الذّي يهم الباحثين ويشغلهم.[1]

[1] محمد حالمي في الخطاب الرحلي، مقاولة منشورة إلكترونيا.

- مفهوم أدب الرّحلة:

بعد أن حددنا مفهوم أدب الرّحلة في الاستعمال اللغوي والاصطلاحي، سنحاول تحديد مفهوم أدب الرّحلة باعتباره فنا من فنون النّثر.

وهذا النّوع من النّثر لم يأخذ في بداية الأمر اسم رحلة وعناوين بعض المؤلفات دليل على ذلك مثل (مروج الذّهب تحقيق ما الهند من مقولة في العقل أو مرذولة...)

أمّا لفظ رحلة فأول من أطلقها على مؤلفه فهو بن "**جبير**" ولقد ورد ذلك في مقدمة الرّحلة المغربية لـ "**سميرة أساعد**" الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري **للعبدري**، يقول: المحقق كلمة رحلة ليست من ابتكار "**العبدري**"، فأول من سمى هذا النّوع من الكتابة "رحلة" هو "**أحمد بن جبير المتوفي**" سنة 214هـ فهو إذا مؤسس "فن الرّحلة" [1]

وتقف الباحثة "**نوال عبد الرّحمان الشّوابكة**" موقفا مماثلا في تحديدها لهذا الفن بقولها: "أدب الرّحلات فن تغمره الحياة، يزخر بالتّجارب الحية، الحركة والانتقال من مكان لآخر وهو بذلك يلتقي يالسّيرة ذلك أنّ كلمة "سار" تدل على المسير والانتقال وتومئ بطول الطّريق وقطع المسافات وتعدد المراحل وهذا يتفق مع الكتابات التّي تؤرخ لسيرة الانسان منذ طفولته إلى شيخوخته"[2]

[1] محمود العبدري البلنسي، الرّحلة المغربية أحمد بن جدّو مطبعة البعث نشر كلية الآداب الجزائرية قسنطينة ط1 ص2.

[2] نوال عبد الرحمان الشّوبكة . الرّحلات الأندلسية والغربية حتى نهاية القرن 9 هـ دار المأمون للنّشر والتّوزيع . عمان . مطبعة 2008 صفحة 243.

ويبدو من خلال هذا أنّ الباحثة تحاول أن تبرز مواطن الاختلاف والتّشابه بين أدب الرّحلات والسّيرة الذّاتية على اعتبار أنّ الرّحلات تطلعنا على سير أصحابها وتكشف عن مواهبهم ودوافعهم للقيام بتلك الرّحلات.

هذا كله يقودنا إلى صعوبة القبض على تعريف يجمع في حده رغم الخصوصيات والتّنويعات في النّصوص الرّحيلية العربية.

ففي معجم مصطلحات الأدب لـ"**مجدي وهبة**" "لا نلاحظ أي تعريف للرّحلة فقد اكتفى صاحبه بإشارة مقتضية للرّحلة الخيالية".[1]

بالمقابل نجد "**جبور عبد النّور**" في المعجم الأدبي يتحدث عن الرّحلة دون إيجاد تعريف خاص بها بل اكتفى بكلام عابر يقول: "تشل الرّحلة في الأدب منزلة رفيعة، وأصبحت من الفنون الشّائعة في معظم بلدان العالم الثالث، ثم يشير إلى أنّ للمغامرة الاكتشافية والعواطف المحركة للبشر وتابعة أيضا من أنواع الشّخصيات التّي تبررها للقارئ"[2]

في الوقت الذّي اكتفى فيه "**سعيد علّوش**" بذلك في المجال الذّي تنشئ إليه الرّحلة وذكر أعلامها وميادينها يقول «أدب الرّحلة هو أدب يدخله في درس الصّورولوجيا أي دراسة صورة شعب عند شعب آخر»[3]

[1] مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب مكتبة لبنان . بيروت 1974 ص 165.

[2] جبور عبد النّور . المعجم الأدبي بدار العلم للملايين بيروت . ط2، 1986 ص121.

[3] نفس المصدر ص 122.

وقد سارت الموسوعة العالمية Emcyclopédie universels على النّهج ذاته فاكتفت بالإشارة إلى أن الخصيصة الأساسية للرحلة هي التّنوع دون المظاهر المختلفة، وأنالرّحلة تدخل ضمن السّيرة لأنّ المؤلف والرّاوي والرّحالة هم شخص واحد.[1]

فيما عرّف معجم المصطلحات الأدبية أدب الرّحلة بأنّه "مجموعة الآثار لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمنظر الطّبيعية التّي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته أو يجمع بين كل هذا في آن واحد" "وقد اشترط الدّكتور "**انجيل بطرس**" من خلال تحديد مفهوم أدب الرّحلات أن يتحقق في وصف الرّحالة وتسجيل لمشاهداته وانطباعاته الواقعية والدّقة وجمال الأسلوب"[2]

فيقول ذات الأخير «وهناك صفتان عامتان لابد من توافرها في أدب الرّحلات وهما:

أولا:أن يكون من يكتب عن الرّحلات رحالا بطبعه محبًا للرّحلات.

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذّي يجعل وصفه للرّحلة بعكس الرّحلة والرّغبة الشّديدة التّي تمتلكه للقيام بها، ولعل خير أمثلة أدب الرّحلات "هو ما يكشف شخصية الرّحال بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التّي ينتقل بينهما والنّاس الذّي يلتقي بهم، فإذا كان الوسط الذّهبي هذا، ففي أحد طرفيه توجد الأمثلة التّي تقع فيها شخصية الرّحالة في مركز الانتباه، وفي الطّرف الآخر.[3]

[1] سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، المكتبة الجامعية الدّار البيضاء 1984 ص7.

[2] المرجع السّابق.

[3] المرجع نفسه.

- نشأة أدب الرحلة عند العرب:

لقد ارتأى الباحث "عمر بن قينة" إلا أن هذا الفن بدأ بأخذ مكانة معتبرة في الأدب العربي بل إنّه أصبح ينافس الفنون الأدبية الأخرى لطابعه الموسوعي واهتمامه بحياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم ونظم الحكم وأسايب العيش، كما مضى ليكتسب أسلوبا أدبيا يعانق فيه الواقع الخيال[1].

ومعنى هذا أن أدب الرحلة بين الحقائق الواقعية والخيال أي أنّه يقدم الحقائق كما هي في الواقع، كما يجنح إلى الخيال وهو الذّي يتبدى في توظيف الرحالة للأساليب الفنية التي تظهر حينها يضمن الرحالة رحلته بعضا من الأشعار والمقامات.

ولا مندوحة لنا من الأعراف والإقرار بأن جل المصادر والأبحاث التاريخية تجمع على أن الفن بدأ يأخذ طابعا جديا وعلميا أكثر مع بداية القرن الثالث الهجري (التاسع للميلاد) على حد تعبير "**شوقي ضيف**"[2] وبهذا عدّ القرن الثالث بداية التأريخ للرحلات العربية كفن مدّون، وهو ما أكد عليه الباحث "**شعيب حليفي**" في قوله: يمكن اعتبار القرن التاسع ميلادي بداية التأريخ للرحلات العربية المكتوبة مع اتساع دائرة التأليف والتصنيف ومن أبرز الكتب المدونة في الفترة كتاب "المسالك والممالك" لـ"**ابن خردذابة**" وكتاب "البلدان" لـ"**أبي العباسي أحمد اليعقوبي**" الذّي عكس حبه للترحال ودرايته الواسعة بحب الأوطان، وكتاب "فتوح

[1] بن قينة (عمر): الخطاب القومي، للثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1999، ص08.

[2] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ج2، ط1، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص120.

البلدان" لـ"**البلاذري أحمد بن يحي**" الذّي اهتم بإبراز جوانب تاريخية وجغرافية هامة. الأمر الذّي جعل الباحث "**كريتشوفسكي**" يصفه بقوله: لقد حفظ لنا "**الباذري**" مادة هامة في محيط الجغرافية التاريخية يستحيل معها إغفال ذكر صاحبها في عرض للأدب الجغرافي[1].

وقد خطت الرحلة في الأدب العربي خطوات أكثر تقدما في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) بمستواها الأدبي الراقي واتساع مجالها الجغرافي، وانتقلت إلى مستوى عالمي أوسع وأشمل خصوصا بعد ظهور الرحلة الأكثر شهرة في أدب الرحلات، وهي رحلة "**ابن بطوطة**" الموسومة بـ: "تحفة النظار في غرائب الأمطار الأمصار وعجائب الأسفار" التي ذكر فيها محققها بأن "ابن بطوطة" أورد فيها أسماء الكثير من الأئمة، والعلماء والشعراء والملوك والأمراء، هذا فضلا عن أسماء البلاد والبقاع والقرى التي زارها ومكث فيها أو مرّ بها[2]. مما ينبء بأن هذا الرجل كان شغوفا جدا بالرحلة ولعل هذا ما دفع الباحث "شوقي ضيف" إلى القول: إنّ "**ابن بطوطة**" لم يترك بلدا نزل بها إلاّ وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها وقضاتها وبهذا عدّ خاتمة للرحالين المغاربة وأكبرهم خاصة من أولئك الذّين انتظم مسار رحلتهم لتشمل كل العالم الاسلامي، انطلاقا من بلده الأصلي طنجة ولهذا حظيت رحلته بكثير من الدّراسات العربية الإسلامية وحتى العالمية حتى قيل فيه بأنّه: "أشهر من جال في البلاد وجاس في الأمصار، التقى بالعلماء والملوك، وتزوج النّساء في

[1] كراتشكوفسكي (أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدّين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1987، ص161.

[2] ابن بطوطة (محمد بن عبد الله): رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول والثاني، دار الفكر، بيروت، ط1، دت، ص05.

أغلب البلدان، وقطع أكثر من مئة وعشرين ألف كيلومتر، وداس جميع الأراضي التي وصل إليها بشر حسب علمه باستثناء دول الشمال وأبرز من كتب عن إفريقيا".

ويعتبر كتاب "**ابن بطوطة**" من أعظم كتب الرّحلة امتاعا جاذبية، هذا فضلا عن احتوائه على كم هائل من المادة الجغرافية والاثنوغرافية والأدبية، الأمر الذّي جعل بعض العلماء الغرب يشككون في هذا الانجاز الذّي اقتنعوا واعترفوا بقدره فيما بعد.

ونلمس في هذا الكلام تأكيدا لقيمة هذا الكتاب، ومن الرحلات بزغت في هذا القرن أيضا رحلة "سلام الترجمان" الذّي وصفها الباحث "**زكي محمد حسين**" بقوله: إنّ رحلة سلام الترجمان إلى الصين الشمالي قد تكون حقيقة تاريخية[1].

هذا فضلا عن رحلة "سلمان التاجر" إلى الهند والصين، و"**ابن وهب القرشي**" و "**محمد بن موسى المنجم**" التي تذكر المصادر أنّه: قام برحلتين إلى آسيا الصغرى لفحص كهف الرقيم الذّي لجأ إليه مجموعة من الشباب هربوا بدينهم وعرفوا باسم أهل الكهف، والثانية مع "**سلام الترجمان**" لزيارة سدّ يأجوج وماجوج[2]. ونستشف ممّا سبق أن القرن الثالث الهجري كان قرنا حافلا بالانجازات المتعلقة بأدب الرحلة، الأمر يجعلنا ندرك بأنّ انطلاقة هذا الفن كانت انطلاقة قوية عززتها جهود الاعلام الذّين سبق ذكرهم.

ويعد القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) من أزهى الفترات، إذ عرف فيه هذا الفن نضجا وازدهارا لم يعرفه في القرون السابقة أو اللاحقة، حتى انّ أسس أدب الرحلة وضعت

[1] محمد حسين (زكي): الرحالة في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص15.
[2] المرجع نفسه، ص104.

فيه كما أن كتب الرحلات التي ألّفت فيه كانت الأساس الأول الذي قامت عليه[1] التالية سواء في الأدب أو الجغرافيا أو الموسوعات أو المعاجم المتخصصة. ولعل مردّ ذلك كثرة التأليف وانفتاح الرحالة على العالم الخارجي بعد أن اقتصرت الرحلة في القرن الثالث على االجزيرة وما جاورها.

أنواع الرّحلات:

I- الرحلة الفعلية:

1- الرحلات الحجية، الزيارية:

تحفل النّصوص الرحلية الحجية بوفرة في التنويع، تأتي كما لو أنها سير ذاتية أو مذكرات شخصية محدودة في الزمان والمكان، تكتب في وضعيات مختلفة بأساليب تتارجح بين التقرير الجاف، والانسياب الروماني المتدثر بالمعاناة وغلالات من المحنة والبعد عن الوطن والأصحاب[2].

هذا النّوع من الرحلة الموسومة بالحجية أو الزيارية المدونة صورة عن نشاط إنساني مكثف عرف تناسيالارتباطه بالدين الذّي حث على السفر والحج للتطهر من الآثام، والشعور بالارتياح لبدء حياة جديدة تكون عتبة للحياة الأخرى أو لتزكية الحياة السابقة وتتويجها والتبرك بالأماكن المقدسة، وإتمام فرض ديني وهو حتمية تلزمها الأخلاق والتعاليم الدّينية.

[1] حسن محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1968، ص1.

[2] شعيب حليفي- الرحلة في الادب العربي- التجنس – آليات الكتابة- خطاب المتخيل، ط1، 2006، رؤية للنشر والتوزيع.

كما أنّ التعالق بين الرحلي الديني دفع بالعديد ممن يمتلكون حسا أدبيا إلى تدوين رحلاتهم باعتبارها هجرة ومرحلة حاسمة في حياتهم.

ومايميزها عن باقي الرحلات هو التعدد، لكونها ذات خصائص محددة، وعناصر تحكم بنيتها على المستويين الشكلي والدّلالي، وخكذا يمكن مقاربة الرحلة الحجية من خلال ثلاث محطات تتحول إلى مشاهد لفهم عملية اشتغال النص الحجي وتفكيكه.

هذه المشاهد هي: مشهد الخروج، مشهد الميسر ثم مشهد الوصول[1].

وهي محطات متماسكة تحكمها عدة وشائج وتتخللها تفاصيل ومفاجآت.

أ-**مشهد الخروج:** إنّ السفر في الرحلة الحجية لا يكون فرديا وإنّما ضمن ركب منظم يرأسه شخص عارف بالطّريق يوسف بالتقوى والأمانة والحنكة في التفاوض وحسم الأمور... وكلّها تفاصيل تبرز في مشهد الخروج الذّي يقترن بلحضتين أساسيتين تتعلقان بلحظة كتابة هذا المشهد، هل دون أثناء أو بعيد الخروج أم بعد انتهاء الرحلة؟ وهي أسئلة رئيسية في فهم العديد من المعطيات، لأنّ هذا المشهد تتأتى أهيمته من تضمنه لعناصر تخبيلية ترفدها رؤية الرحالة: الراوي التي تسبق مشهد الوصول[2].

ومن هنا تأتي أهمية النّص الذّي ينكتب أثناء الارتحال، فهو يسجل انطباعات حول المعلوم متوغلا لحظة لحظة في المجهول، حال النصوص العديدة التي كان الرحالة فيها

[1] شعيب حليفي- الرحلة في الأدب العربي- التجنس- آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ص139.
[2] المرجع نفسه، ص140.

يستثمر فرصة استراحته لتدوين النفاصيل قبل امتداد المسافة بين لحظة الحدث وبين فعل التدوين.

وتعتبر اللحظة الموالية حافر لرحلة، ففيها يعمد الراوي إلى ترصيع نصه بسرد الحافز الذي دفعه للخروج إلى الحج والزيارة من أجل اتمام الفرائض الدّينية والتطهر والتكفير عن الأخطاء والبحث عن الخلاص من الضيق والأزمات[1].

ب-**مشهد المسير**: ويتضمن وجهين للسفر، ذهابا وإيابا، مع اختلاف يميزها، فالأول يكون مسهبا تفصيليا، والثاني مختصرا وسريعا درءا لأي تكرار، لا يروي فيه إلاّ ما يكمل الأول.

ويشكل مشهد المسير بؤرة النّص الرحلي، ونسيج الحكي وجامعه لأنّ السارد يصف ويروي انطلاقا من عين متحركة تسير من نقطة إلى أخرى، ومن المعلوم إلى المجهول وعادة ما يتضمن هذا المشهد معظم أحداث الرحلة بما فيها معاناة الرحيل والمشاهدات، والمروي عن طريق السماع والحوار. ذلك أنّه يمكن وثف هذه اللحظة بأنّها مشهد العين المتحركة المرفودة برؤى وتخيلات ترسم فضاءات الوصول، تسند بالدّهشة، فتجيء سرود وأوصاف هذا المشهد مبطنة بالأحلام وبالأحكام التي تتكئ على المقارنة بين معطيات الراوي والواقع المرئي والمسموع[2].

وفي رحلة "**العبدري**"، داخل مشهد المسير، هناك مشهدان:

[1] شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص140.

[2] شعيب حليفي- الرحلة في الادب العربي- التجنس – آليات الكتابة- خطاب المتخيل، ص143.

المشهد الأول: افتتاحي داخلي ينطلق من آخر بلاد السوس، فيحكم عليها بعد وصف طبيعتها بموت العلم فيها، كما يصف ماضيها الموسوم بالخطوب والرهبة، وحاضرها المليء بالحروب.

المشهد الثاني: ويتمثل في لحظة المسير الخارجي بدءا بوصول الرحالة إلى تلمسان، فيصف فيها تيهه وتعبه في المغارة الخطيرة، لأنّ تلمسان في أول نقط مسيره والفضاء الذّي سيدّون فيه بداية رحلته. لكن شيئين غريبين سيشدان انتباهه هما: مشهد الحجاج الذين يطلبون العطاء، وبعض خصوصيات تلمسان، حيث يتسم أهلها بالبخل وعدم إقراء الضيف، وضعف العلم والقضاء، وتحايل النّاس وتدليسهم، ويتواصل رحيله عبر الجزائر، ثم بجاية وقسنطينة وباجة وتونس، والقيروان وقابس، ثم طرابلس والاسكندرية والقاهرة، وعبر هذه المشاهد[1] تتبدى عناصر رؤية الرحالة أو الأسس التي يرسم وفقها أحكامه ويضبط مقارناته، وهي خمس نقط:

- **التاريخ:** يعود إلى تاريخ الأمكنة بذكر ماضيها المشرق أو الشوائب التي حلت بها قديما.
- **الحضارة:** من خلال إبرازه للعمران والطبخ بالإضافة إلى وصف الطبيعة وجمالها.

[1] العبدري، رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية. الرباط، المغرب، جامعة محمد الخامس، سلسلة الرحلات4، حجازية1، 1968، ص1.

- **العلم:** وهو نقطة أساسية يركز عليها الرحالة في كل لحظة توقف، بحيث يستطيع غياب العلم أو وجوده واصفا لقاءاته مع أدباء وعلماء لتلك النقطة وثمرة ذات اللقاء.
- **الدين:** يحكم على نقطة الوصول بضعف التدوين أو شدته.
- **طبائع النّاس:** يصفهم من زاوية الأخلاق والاستقامة، أو الفساد والانحراف، وما يتتبع ذلك من ذم لهم بالبغض والبخل.

إنّ مشهد المسير هو لوحات مذوّتة ملأى بأوصاف بلغت حد التجريح، تعبر عن رؤية عالم وفقية يرى في البلاد الإسلامية تقهقرا سببه ترك الدّين ومقوماته وهجر الانسان العربي للأخلاق النبيلة، وكل القيم الأساسية. لهذا كان يجد العزاء والمتنفس في لقاءاته بالشيوخ والعلماء والشعر وزيارة قبور الأولياء[1].

أما مشهد السير إيابا ينطلق من القاهرة، ويتم ماكان قد ابتدأ في الذهاب. وبالتالي يظل مشهد السير الأكثر غنى والأهم باعتباره يأخذ الحيز الأوفر في النص الرحلي، ويتوفر على دينامية سردية تهيئية للمشهد القادم.

ت-**مشهد الوصول:** وهو تأسيس رؤية ثالثة تنبني على انطباعات حنينية، وقد اعتنى النقاد بمشاهد الوصول، وعلى الخصوص "**ماري برايت**" ذات التي اعتبرتها ذات دلالات في النّص الرحلي عامة، بحيث يبرز اصطدام المجرد بالملموس، كما أنّ الصورة الذهنية حسب

[1] شعيب حليفي- الرحلة في الأدب العربي- التجنس - آليات الكتابة- خطاب المتخيل، ص144.

"**هنري جيمس**"[1] تنمو في عقل المسافر طبقا لمنطقها الخاص بها، وأن الأفكار المسبقة كثيرا ما يجد المرء أنها تخالف الواقع إلى حد كبير فيتجابه خيال الرحالة واحتمالاته السابقة مع معطيات العالم الواقعي ليبحث عن التعديل والمقارنة والفهم.

وفي كلتا الحالتين تتم زيارات أخرى للتزود بالعلم في هذا المجال على يد شيوخ وعلماء وفقهاء، وتكون مشاهد المسير وحلقات الوصول مغايرة للرحلة الحجية، لأنّ هذه الرحلات الزيارية والتصوفية المتجهة نحو القبور والزوايا والمزارات تتخذ من الفضاء الواحد والمحدود هدفها، ومن الطقوس والعادات وبعض الخصوصيات، بالإضافة إلى ترجمة سير الأولياء، وسرد كرامتهم وخوارقهم، والأحاديث المتصلة بهم، مادة للكتابة وعصبا للرحلة[2].

2- رحلات المثاقفة:

انصرفت جهود العديد من الرحالة إلى تدوين نصوص تندرج ضمن خانة الرحلات الوصفية التي يدوّنها الرحالة عقب رحلة سافر فيها إلى مكان آخر بقصد التحصيل العلمي، وتلاحق التجارب الثقافية والاحتكاك بمكونات معرفية وثقافية أخرى.

ولعل الرّحلة الموسومة بالعلمية والأدبية نص استكشافي يسجل ويؤرخ للحظة تحول المعرفة الفردية للرحالة الذّي يكتشف يصطدم ويعرف ثم يقارن ليركب، فعلى مر تاريخ كامل للرحلة فعلا ثم نصا كانت الرحلات الاستكشافية حاضرة على مستويات مترابطة يصب فيهما

[1] العبدري، رحلة العبدري، المسماة الرحلة المغربية. ص2.

[2] أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير (باي الغرب الجزائري) إلى الجنوب الصحراوي الجزائري- القاهرة، مصر، عالم الكتب، ط1، 1969، تحقيق محمد بن عبد الكريم.

هو علمي وأدبي دون حدود توضع بين ضفة العلمي والأدبي، ذلك أنّ الرحلات العلمية إلى أوروبا زاوجت بين ما هو أدبي وعلمي من خلال دراسات ارتبط فضاؤها بافريقيا أو بالشرق العربي أو بالدول العربية الإسلامية عامة، وقد تمركزت النّصوص العلمية – الأدبية حول مجال العلوم الانسانية دون العلوم الحقة كالطب والهندسة... فقد غلبت إلى حدود القرن التاسع عشر[1] الرحلات الأدبية التي تسعى إلى استكمال المعرفة عن طريق التصحيح والتوثيق والإجازة، خصوصا في مجال الفقه والحديث، وقد تجلى ذلك في البحث عن أمهات الكتب، والتقرب من العلماء والفقهاء، والجلوس إليهم في مجالس العلمية حيث تتسع دائرة الحوار.

إنّ هذا الجانب ذا الأسس الدينية يستحضر بالضرورة، عند الرحالة ثقافة أدبية ممارسة ولا يتعلق الأمر بالشعر والنثر الفني والنقد...

3- رحلات الـ «نحن» إلى الآخر:

تبرز الأنا/ النحن في علاقاتها المباشرة بالغير/ الآخر في هذا النوع الهجين، والذي يلخص وجود نص رحلي يتوفر على مقومات الرحلة بعناصرها الأدبية مع اختلافات يفرضها الموضوع، والأمر يتعلق بحمل خطاب النحن الرّسمي إلى جانب آراء ومعطيات الأنا عن الآخر، إلى الغير، وبالتالي فإن النصوص المدّونة في هذا المجال تكشف عن جزئها

[1] أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير، ص 94.

المكتوب – الأساسي في هذه العملية، وهو خطاب النحن، وحمولة الأنا، أي ماهو طاهر وباطن، ثابت ومتحرك في أفق تعديل المتحرك وتلقي الجواب عن الثابت[1].

وقد ارتبطت هذه النّصوص، بدورها، بالوضع السّياسي للبلد المرسل والبلد المستقل، في حالتي الاستقرار أو الاختلال لهذا كثيرا ما يتم اختيار العلماء والأدباء والأعيان المتمرسين لمهمة السّفارة، وما تقتضيه من حنكة في التفاوض والدّقةة في الملاحظة والبديهية، لأن الأمر، غالبا ما يتعلق بتحسين العلاقات، واقناع الآخر بما يخدم مصالح النحن، وجمع معلومات كافية عن الغير، إنّها مهام متفرعة الأبعاد تختلف أحيانا عن المهام المحدودة بإيصال خطاب أو رسالة، أو التفاوض حول مسألة معينة[2].

II- الرحلة المتخيلة:

يقترب الفيلسوف العربي " الكندي" من التخيل عبر مفردة أخرى اصطلح عليها بالتوهم، وعرفه بأنّه "الفانطاسيا" وهو قوة نفسانية ومدركة للصورة الحسية مع غيبة طينتها، ويقال الفانتاسيا هي التخيل وهو حضور سورة الأشياء المحسوسة مع غيبة طينتها[3].

هذا التعريف يقود إلى الحديث عن الرّحلة المتخيلة التي لا تتأسس فعليا في الوجود الفيزيقي، أو تتطلب تجربة معيشة على المستوى الواقعي وأخرى ذهنية تؤسس لعالم متخيل يجنح إلى صوغ أفكار وتأملات معينة تتماشى مع المثالية والعديد من المقولات والتصورات

---

[1] كارل سميث، أدب السفر عند هنري جيمس وأثره في فنه ضمن مجلة الثقافةالأجنبية، محور أدب الرحلات، بغداد، العراق، السنة 9، العدد3، 1989، ص90، ترجمة يؤئيل يوسف عزيز.

[2] المرجع نفسه، ص91.

[3] عاطف جودة– نصر الخيال "مفهوماته ووظائفه"، مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1984.

الصوفية والفلسفيو والدّينية التي ترسم رحلة النفس في بحثها عن عالم آخر يكون بديلا عن الواقع، وصولا إلى المطلق واليقين والحقيقة والمعرفة الخالصة للتطهير[1].

لهذا تعتبر النصوص التخيلية رحلات استكشافية تقف فيها الأنا مقابل صورتها (الباطن) عن طريق إسقاط ما هو مادي والالتفات نحو ما هو روحي، فارتبط هذا من التوهم المدون في شكل رحلات بحقول الفلسفة والتصوف والأدب. وقد تخصبت عن طريق التفاعل الثلاثي من جهة، ثم التفاعل، من جهة ثانية، مع النقاشات الدينية والمساجلات التي أفرزت مفاهيم وتصورات ذات قدرة على التحاور والتصادم والنمو. وأخيرا المشهد الثقافي – الفكر والسياسي الذّي كان له دور مشهود في توجيه وتلوين التصورات التي ستتحول– إبداعيا– إلى أشكال أدبية وفنية، من بينها شكل الرحلة المتخيّلة التي عرفت تراكما مهما في الأدب العربي وثراءا في التنوع داخل الشكل الواحد، بأساليب تراوحت بين فنية مرهفة رمزية متماسكة وعميقة. لم يكن هذا النوع طارئا، في فترة معينة، أو حكرا على بيئة أو شعب معينين، وإنّما وجد منذ القديم بدءا من جمهورية أفلاطون إلى ابن طفيل والوهراني وابن شهيد والمحاسبي وابن عربي والعربي، كما عرفت في الآداب الأوروبية وغيرها انتشارا سمي بأسماء مختلفة. فبعد الكوميديا الإلهية لدانتي جاءت نصوص اليوتوبيا، ثم القصص الفلسفي والخيال العلمي...

[1] عاطف جودة– نصر، الخيال "مفهوماته ووظائفه"، ص 110.

وتبقى السرود الرحلية التخيلية في الأدب العربي إرثا متعدد المنطلقات والأبعاد، غنيا بالمعطيات التي تفسح للتأويل والقراءات منافذ عدّة، الشيء الذّي يلزم، بدءا، بتحديد وتصنيف هذا النوع حتى تتبين أفاته.

في مستوى أول: هناك نوعان من الرحلات المتخيلة وجد في الأدب العربي ويستذان في تغايرهما إلى مكون الفضاء أساسا، ثم مكوّن الزّمن، إضافة إلى عناصر أخرى حيث توجد رحلات دنيوية وأخرى أخروية تتخلق عن طريق منام/ حلم أو حكاية للاتعاظ أو تخيل يوهم بواقعية الرحلة، وهو تشكيل يوجد في النّوعين معا[1].

أ) رحلات دنيوية:

هي النّصوص الرحلية التي يتم رسم أحداثها ووقائعها في الدنيا داخل فضاء يكون معروفا أو مرموزا إليه في العالم الواقعي الأرخي في الأزمنة الثلاثة، بحيث ينصب التركيز في الرحلات الدنيوية الزمنية (في الماضي والحاضر) على مكون الزمن باعتباره البؤرة التي تحرك النّص الرحلي في إطار تقابل المتناقضات، وإضاءة نمطقة الحلم/ المثال الذّي تتحقق فيه القيم المفتوحة، وتسمو الأخلاق وتسود العدالة... وكلها تقديرا نابعة من الحلم المثالي بواقع آخر يطهر الحاضر الفاسد.

أنّ النّص الرحلي الدنيوي في التراث العربي – السردي وجد داخل حقول متقاربة، لم تكن ثابتة بل متفاعلة في إطار صراع الأفكار والتصورات. لهذا فقد جاء مستندا على خلفيات دينية واجتماعية وسياسية، وأخرى صوفية – فلسفية أو فنية.

[1] عاطف جودة– نصر الخيال "مفهوماته ووظائفه"، ص111.

ب) رحلات أخروية:

تضم الرّحلات إلى الآخرة عوالم تخيلية مرتبطة بجنوح رسم عوالم الغيب، وتخيل وقائع يوم القيامة وتصوير ما يحدث في الجنة والجحيم بأسلوب ترهيبي وترغيبي، وهذا ما قام به العديد من الفقهاء في إطار ما سمي بأدب القيامة. ولعل "كتاب التوهم" للمحاسبي يبقى النص الذي يمكنه اعتباره أنضج من غيره من النّصوص التي تناولت الآخرة. أمّا الجانب الآخر من النصوص التي تناولت الآخرة ارتحالا وتخيلا إليها فقد اختارت تيمة مغايرة تميزها عن كل ما كتب، وهي تخيل ما يقع يوم الآخرة من محاكمات للشعراء والأدباء، وهذا ما نجده عند أبي العلاء المعري في ردّه على رسالة ابن القارح[1] ، أنّ خليفة المحاسبي ومن ار على دربه تحكمها نوازع دينية محضة مشدودة إلى فكر اصطلاحي يبغي تقويم النّاس وهذا يتهم عن طريق ترهيبهم بتصوير يوم القيامة.

أمّا خليفة المعري في رسالته فهي أدبية تتوخى تخيل قسم من الأدباء في الجنة والقسم الآخر في النار مع إيراد شواهد وحكايات تبرز وجودهم[2]. ويستمر المحاسبي بنفس الأسلوب والنهج مشيدا بذلك صورة مشدودة إلى خطابب الترهيب والترغيب، اللذين يتضمنان إشباعا بالاحتمالات في التوهم الذّي يعطي للخطابين فرصة التناوب على وصف عالمين نقيضين كل التناقض.

[1] أبو العلاء، رسالة الغفران، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، د ت، تحقيق فوزي عطوي.

[2] الحارث المحاسبي (ق 3 هـ)، كتاب التوهم، حلب، دار الوعي.

ويتم التركيز في هذه الرحلات على عنصرين مكونين لصياغة الأفكار، هما الفضاء والزمن، مع التنويع في أساليب التناول الفني للمعالجة وأيضا في طرق السرد وزواياه، ومدونات الحفز التعجيبي عند كل كاتب على حدة[1].

وتبقى كل رحلة متخيلة جزءا من نصوص الرّحلة عموما، يسمها طابع البحث عن الأنا في الآخر والغير، والبحث عن التطهر والخلاص للوصول إلى بديل هو يقين ما استحال وجوده في الواقع العيني[2].

[1] أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ص3.

[2] المرجع نفسه، ص5.

الفصل الثاني

صورة العربي في مرآة الآخر

سأواصل ترك خواطري تشرد أحيانا وتتشكل أحيانا أخرى في قوالب الدّراسة المنهجية للأدب المقارن، فلا أظن القارئ يريد أن يقرأدرسا ولكن قد لا يأبى أن يطّلع على بعض الخواطر العابرة التّي أثارها تدرس مادة هي في قلب الرّوح الحظارية المصرية الحديثة، رغم أنّها حديثة العهد بالجامعة، فمصر، ومثلها في ذلك مثل غالبية دول العالم الثالث. دائمة التّأمل في اشكالية كينونتها أو هويتها، ودائمة المحاولة لضبط المفاهيم الدّالة على أصالتها، تلك التّي تأقلمت في نفسها، وتلك التّي رفضتها. فهي في حالة تفاعل مستمر على الصّعيدين الثّقافي والسّياسي على سواء، تصادق من يصادقها، وتعادي من يعاديها، لا في مجال السّياسة وحسب، بل أيضا في محاوراتها المستمرة مع حضارات الغير وثقافاتهم، فالغير ماثل في أفكارنا ومشاعرنا حتى بعد كفاحنا الموفق ضد قوى الاستعمار والطّغيان، فنحن لا نعيش وحدنا في عالم عربي إسلامي موحد الفكر ومتحدة الكلمة، بل نعيش في حالة مدّ وجزر مع تيارات الفكر التّي تتلاطم على شواطئنا من الغرب ومن الشرق بكل مواجاتها المتفرقة وكلّما بحثنا عن ذاتنا وجدنا فيها أشباحا من حضارات منقضية، وثقافات غازية، وإدراك الأصالة يكون بمثابة محاولة بطرق صراط ضيق بين مقاومة الغزو والفكري، والتّرحاب يه إلى مدى، ولذلك يكون الصّراع مستمرا مع الغير الحقة في رؤيانا بسبب الجهد المتكرر الذّي نبذله في سبيل إثبات وجودنا[1]، وكم من مرّة ظهرت في الملهات المصرية الحديثة شخصية الأجنبي الذّي يلحن في العربية، ويتلعثم في نطق ألفاظها، بقصد إضحاك

[1] مجدي وهبة: أدبيات أدب المقارن ومصطلحات أخرى- الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، 1991- الطبعة الأولى 1991، ص 25.

الجمهور، وإشعاره بأنّه خير من الأجنبي وكم من مرة صورت الحظارة الأوروبية في خطبنا ومقالاتنا على أنّها مادية بصفة عامة،[1] مدمجين فيها التّيارات الفكرية التّي عمّت بلادها الرّأسمالية والاشتراكية على السواء، فلابد أن نتذكر جذورها الذّهنية من فكر مسيحي وثقافة يونانية ولاتينية، تراكمت عليها طبقات هامة جدا من النّظريات الفرويدية في علم النّفس، والنّظريات الماركسية في تأويل البناء الاجتماعي، والمذاهب البرالية الإنسانية، النّزعة في التّشريع الاجتماعي، والأزمات المزلزلة التّي ترتبت على نمو القوميات المتطرفة في أوروبا، وذلك خاصة في أوروبا فيما يتعلق بالظّاهرة الفاشيشية في إيطاليا والنّازية في ألمانيا، كل هذا له، والواضح في تشكيل النّفسية الأوربية في شرقها وغربها، كما أدّى إلى الإنقسام المذهبي الخطير الذّي يعيشه العالم، وأدّى أيضا إلى انتشار الصّهيونية في شكلها الاستيطاني في أراضي فلسطين من ناحية وفي شكلها المتغلغل في نفوس الأمريكيين والأوروبيين، وظمائرنا وضمائرهم من ناحية أخرى.

كل هذا لابد أن يفهمه ليتضح لنا العالم الغرب والشّرق في العصر.[2]

[1] مجدي وهبة: أدبيات أدب المقارن ومطلعات أخرى . ص25.

[2] المرجع نفسه، ص25.

صورة الآخرين:

إنّ رؤية شعب لشعب آخر من خلال الأدب نادرا ما تكون سوى أسطورية أو مشوّهة، وفيها تعبير عن عقد الكاتب النّفسية ومسلماته الوجدانية أكثر من كونه وصفا صادقا للواقع، فرؤية إنجلترا في كتاب فولتير عن رحلته في تلك البلاد لم تعن بما شاهده من فقر أو انقسامات طائفية أو غنى طفيلي، لطبقات استفادت من تجارة الرّقيق في المستعمرات وتقلبات الأسعار في الأسواق العامية، بل اهتم فولتير اهتماما خاصا بالنّظم النّيابية، والقوانين الخاصة بصيانة حقوق المواطن، وذلك لينقل ما شاهده إلى قرائه الفرنسيين، الذّين كانوا يعتبرون الحكم الملكي الفرنسي المستبد ناموسا من نواميس الطّبيعة لا بديل له حيذاك، وكذلك حاول وصف فرنسا الثّورية في كتابات الرومانسيين الإنجليز، والألمان في أوائل القرن التاسع عشر يذكرون حقوق الانسان، وانتفاضة الطّبقة الوسطى، وانتشار الوعي بالحريّة، والإخاء والمساومة ويتناسون العنف والفناء والجماعات، وسيطرت المفصلة الرّهيبة، هكذا الإنسان وهو يكتب عن بلاد غير بلاده ويصوغ مشاهداته بما في أعماق وجدانه من تطلعات وأحلام.[1]

وأشير لهذه المناسبة إلى أنّ رؤية العالم العربي لأوروبا وأمريكا في العقود القليلة الماضية لا تزال متأثرة بالرّأي القائل بأنّه مادي ومنحل خلقيا وخاضع لآثام الجشع والتّعصب. لاشكّ أنّ هناك بعض الحقيقة في هذا الرّأي، ولكنه ليس الحقيقة كلّها فإذا صحّ

[1] مجدي وهبة: أدبيات أدب المقارن ومطلعات أخرى، ص26.

أن نتكلم عن روح الغرب مفرضة لاتقيم للرّوح وزنا، وكثيرا ما اتهمنا الاستشراق بالعمل على بث الفتنة والشّكوك في أقدس مقدساتنا، ولا طالما وصفنا الغير بأنّه يشترك بمؤامرة ضدّنا أو بأنّ حضارته مستمدة من حضارتنا، وأنّ عيون أدبنا، كل هذا فعلناه دفاعا عن ذاتنا، وإن كنا نحاول أحيان أن نتطلع إلى ثقافة منتقاة فيها بعض شرقنا وبعض غربنا، كما فعل المرحوم عميد الأدب العربي الدّكتور "**طه حسين**" في كتابه "مستقبل الثّقافة في مصر" والعكس أيضا صحيح، فكم من مرة جاءت صورة مصر أو العالم العربي مئوّهة في آداب الغرب، فقلّما نجد المصري أو العربي شخصية ذات أعماق في "رباعية الاسكندرية" "**كلورانس دارال**"، تلك الرّواية الطّويلة الحديثة التّي أوجدت انطباعا نمطيا مصطنعا عن الاسكندرية في سني مابين البحرين. وما أبعد العربي أو البدوي عن الواقع في المغامرات والقصص البوليسية التّي أغرقت الأسواق في الغرب حتى وقتنا هذا[1].

صورة العرب لدى الآخر:

يعرض "**حسين العودات**" في كتابه الصّادر حديثا عن الساقي بيروت في عنوان "صورة العرب لدى الآخر" في ضوء العلاقات التاريخية لهذه الصورة في مرآة ثمانية شعوب تداخلت علاقات العرب فيها سلباوإيجابا، مع غضه الطرف عن صورة العرب أمام أنفسهم وذواتهم، وإن كان للقارئ أن يستنتج تلك المزايا من سطور النّص، ومن الواقع المعيش.

[1] جسين العودات– صورة العرب لدى الآخر– في ضوء العلاقات التاريخية– بيروت– مجلة الحياة، 14 يونيو 2014 على الساعة 19:26، ص 222.

ثمة ملاحظة تقود القارئ إلى السطر الأخير من (الكتاب 222 صفحة مع فهرس الأعلام والأماكن وتتعلق بالسؤال حول الجديد االذّي قدمه المؤلف في بحثه عن تلك الصورة لنكتشف أن أسلوب السرد التاريخي عاش على وقائع الكتاب، وغالبا ما لدى ما اختلطت لدى المؤلفصورة العربي الإسلامي عرضه لتلك الصورة وما نتج منها، فافقد غياب المنهج العلمي سيرورة النص البحثي الذّي لو توافرت له شروط البحث السوسيولوجي في قراءة سلوكيات الشعوب، واستنتاجاتها في التقويم لكانت الصورة أعمق. لذا نرى أنّ سياق العرض لم يتمكن من الغوض في تراث نلك الشعوب وإرثها الثقافي والاجتماعي والأدبي، فكانت المعالجة بما توافر منها في الثقافة الشعبية المتواترة، وحل التاريخ تلك الوقائع بلغة الخطاب السياسي اليومي والسرد[1].

على سبيل المثال، لم تعرف صورة العربي عند الصقالية أي السلاف، والروس في الفصل الثالث من الكتاب فيقول: "إنّها بدأت في القرن العاشر الميلادي بين الشعب العربي، والشعب الرّوسي، واستمرت ضعيفة إلى اليوم"

واقتصرت الصفحات الأربع لهذا الفصل على كيفية انتشار الدّين الإسلامي في مملكة البلغار في زمن الخليفة العباسي المقتدر بالله، وفي شمال القوقاز في القرن السادس عشر وبعده على يد العثمانيين إلا أنّه يقول أنه لم تكن سياسة الدولة الروسية في القرن 16 اتجاه الإسلام والمسلمين ذات اتجاه واحد[2].

[1] حسين العودات – صورة العرب لدى الآخر – في ضوء العلاقات التاريخية ص 225.

[2] المرجع نفسه، ص 226.

فأين هي صورة العرب؟ لاسيما أنّ مرويات عدّة ومأثورة في التاريخ العربي عن استجلاب بنات الصقالبة ومعاملتهن بجاريات وأمات، ماكان سيعطي صورة عن العربي لدى الصقالية (تشير في هذا السّياق إلى كتاب الجواري والقيان"، كما لم يتناول المؤلف العلاقات الروسية العربية قبل المرحلة السوفياتية وبعدها؟ ألا يوجد في أدبيات هذه الحقبة من يعطي فكرة عن تلك الصّورة؟ بخاصة أنه تطرق لصورة العرب في وسائل الإعلام الأمريكية، وإن ببضعة أسطر لم تأت بجديد، فالعرب في هذه الوسائل هم "... التناقض والتجزئة وعدم الوحدة والبداوة، وعدم الأمانة والجبن والارهاب وعدم الكفاءة"[1].

ولم تحل لغة "**العودات**" في الفصل الذّي تناول فيه علاقات العرب بالفرس من راهنية الصورة المتوترة لدى البعض، فكرر عبارات متبادلة "لأنّ العرب الذّين أسقطوا إمبراطوريات ودمّروها". وعبر الكره الفارسي عن نفسه في شكل واضح، وصريح في الزمنين الحديث والمعاصر، ولم ينفك العداد الفارسي للعرب عن الانقطاع منذ معركة القادسية، وانهيار الإمبراطوريات الساسانية ولقرون مقبلة". مستبعدا أية صورة إيجابية أو سلبية في أن تكون غير سلبية بحكم الجوار والمصالح المشتركة على عكس ما أورده "**رشيد بلوح**" في كتابه الصّادر حديثا عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في عنوان التداخل الثقافي العربي الفارسي، وفيه رأى يلوح أنّ التداخل كان شاملا ومولدا أشكالا ومجالات معرفية متعددة وأنّه كان حدثا انسانيا فريدا، وتميز بالقبول والتلقائية، وتميزت أدوار العقل الفارسي

[1] المرجع نفسه، ص224.

داخل الثقافة الإسلامية بخصائص مؤثرة خصوصا في نشأة المدارس الفكرية والفلسفية. هذا العرض المكثف للجانب للجانب السلبي من العلاقات العربية –الفارسية أنسب "العودات" مجموعة كبيرة من أسماء عمالقة لا يزالون في ذاكرة التاريخ والحاضر ولعبوا دورهم في النهضة العربية وقيادتها[1]. قد أتى معظمهم من أصول فارسية أمثال "**ابن سينا**"، "**الفرابي**"، "**سبوية**"، "**ابن المقفع**"، "**أبو حيان التوحيدي**"، "**عمر الخيام**" وغيرهم، فابتعد "**العودات**" عن ضرورة مناقشة هذه العلاقة بالعلاقة العربية– التركية، إذ حملت عنوان (الترك الفرحون بالدّين والثقافة العربية الإسلامية) على رغم المسلمات البديهية لسوداوية تلك العقود من الاحتلال العثماني والآثار التي ترتبت عليه في دنيا العرب خصوصا، ومع أنه يشير إلى فرض العثمانيين اللغة التركية على إدارات الدّولة العربية وعلى التركية على إدارات الدولة العربية على التعليم والمحاكمة وتطبيق نظام السخرة وتجنيد الشباب العرب وإلزامهم بالخدمة خارج بلادهم، وإلقاء أتاتورك "مسؤولية التخلف على العرب" ومنذ ذلك الوقت امتلأت الكتب المدرسية التركية بنقد العرب واحتقارهم واعتبارهم: خونة ناكرين للجميل ومتحالفين مع إعداء الإسلام ثم مع تركيا"، كما ألف كبار الكتاب الأتراك كتبا تاريخية تتجاهل ثقافة العرب ودورهم التاريخي في نشر الإسلام وفي السياسة العالمية[2].

واقتصرت صورة العرب في العلاقات الهندية– العربية على العلاقات التجارية وانتقال مصطلحات اللغة إلى الهندية، وبالعكس (تذكر تقديرات الباحثين أن نصف مصطلحات اللغة

[1] حسين العودات – صورة العرب لدى الآخر في ضوء العلاقات التاريخية، ص 227.

[2] المرجع السابق، ص228.

الفارسية مفردات عربية ومثلها في اللغة التركية واصفا هذه العلاقات بأنها "ودية ومتينة يمارسها الطرفان ويحترمانها بل" واستمد هذا التعاطف – بقصد الهندي– من العرب وقضاياهم وحق العرب فلسطين، لكن المؤلف نسي تصاعد حجم التبادل التجاري بين الهند وإسرائيل وصفقات الأسلحة وغياب أي دور هندي على الساحة الدّولية وأي نشاط على الساحة النهد السياسية منذ سنوات بما تعلق بالحق الفلسطيني.

أمّا الصين البعيدة فقد غلبت على علاقاتها التاريخية مع العرب الجوانب التجارية ودخول الإسلام إليها، واختلاط الصور لدى الصينيين بأنّ العربي هو الفارسي مستشهدا بقول إمبراطور الصين للرحالة الفرنسيين بعد ثورة الزنج "إنّ الملوك خمسة وأوسعهم ملكا الذّي يملك العراق لأنّه في وسط الدنيا والملوك"[1].

انتقد "العودات" العرب لعلاقتهم العنصرية بالأفارقة، خصوصا أنّها اقتصرت على تجارة الرقيق أو تجنبها، "فكانت صورة العرق الأسود في ثقافة العرب هي أنهم مجموعة تقع في أسفل السلم الاجتماعي ولا تصلح إلاّ لكي تكون رقيقا، وكان العرب لا يحترمونهم ولا يثقون بهم زينظرون إليهم نظرة عنصرية واضحة لا لبس فيها".

ويستعرض "**العودات**" والتجار العرب في الرّقيق وشراء الإماء وبقيت "صورة الأسود والزنجى في الفقافة العربية تعتبره رقيقا ومتخلفا وخبيثا ولا يمكن إصلاحه، ولم يكن يرف لهم جفن وهم يأسرون السود ويشترون من رؤساء القبائل وينقلونهم ليبيعون في بلاد أخرى" أمام

[1] حسين العودات – صورة العرب لدى الآخر– في ضوء العلاقات التاريخية، ص 229.

هذه الصّورة التي ردها "**العودات**" ما جدوى إتهامه "بأن الاستعمار الأوروبي ساهم في تشويه صورة العرب في إفريقيا؟".

أو في نقله صورة وصفها بالإيجابية عند الأفارقة عن العرب ومنها"أن العرب قوم يتمتع بثقافة عالية واطلاع واسع على الثقافات الأخرى، لكن من سلبياتهم، وفقا للأفارقة– أنّ أنظمة الحكم في البلاد العربية محتكرة ووراثية"[1].

"اليهود أول الأعداء وآخرهم"... يثير هذا الفصل الدهشة لعنوانه الدّيني أولا، والسرده العلاقة التاريخية منذ ظهور النبي والإسلام ومعاداة اليهود الدّين الإسلامي، والاكتفاء بتناوله الجانب الاسرائيلي من هذه العلاقة بصفحتين اثنتين. (هذا الفصل من الصفحة 131 إلى الصفحة 160 لم يعرض فيها لنتائج دراسة قام بها الدّكتور"علي بن صالح الخبتي" بتحليل ممضمون 23 كتاب مدرسي إسرائيلي عن العرب والمسلمين.

أمّ صورة العرب في الغرب الأوروبي، فلا تقتصر على الحوامل، ساهمت في تشويه صورة العرب والمسلمين لدى الغرب وأبرزها الدول الاستعمارية والصهيونية وآلياتها، والاستشراق وحروب الفرنجة، كما يقول المؤلف " فالعجز العربي الذّاتي تناثر أمام المرأة"[2].

[1] حسين العودات، مرجع سابق، ص 230.

[2] المرجع نفسه، ص 231.

I- الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان:

وصاحب هذا العمل هو "**أبو العيد دودو**" الذّي يعد من الباحثين الجزائريين الأوائل الذين اشتغلوا على حقل الصورائية ويعد من معربي اللسان، وذلك من خلال مؤلفه الذي عنونه بـ "الجزائر في المؤلفات الرحالة الألمان" وهو المؤلف الذّي رأى النور، وطبع لأول مرة سنة 1970 وهنا في هذا البحث قد حاول الباحث أن يرصد تمظر صورة الجزائر في مخيلة الإنسان الألماني من خلال سرد مواقف وانطباعات الأدباء والرحالة الألمان الذين زالوا الجزائر وكان ذلك ما بين 1830- 1855، ومن هؤلاء نذكر علم الطبيعة "**موريتس فاغنر**" **MORITZ Vagner** صاحب كتاب "رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836 و1837 و1838"[1].

ما وصل إليه "**أبو العيد دودو**" وما نستنتجه من هذا البحث أنّ "الرحالة الألمان لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حبا فيها ودفاعا عن حقوقها، وغنّما وضعوا أكثرها ولا سيما في الفترة الأولى لتكون دليلا لمن أراد من مواطنيهم الهجرة إلى الجزائر لإنشاء المستعمرات والإقامة بها... لأنّهم كانوا على الأغلب يشاركون المحتلين في عواطف الحقد على الدولة الجزائرية السابقة، ويرغبون رغبة كاملة في الانتقام تحت ستار الدّين والتضامن الأوروبي[2].

[1] أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، 1830- 1855، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د- ط)، 1989.

[2] موريس فاغذر Moritz Vagne- رحلات في ولاية الجزائر، (1831- 1837- 1838)، (د- ط)، 1844.

إنّ الغاية من تأليف كتب الرحلات الألمانية إنّها كانت تقديم بطاقة هوية تعرف المواطن الألماني بالجزائر، وتساهم في تشكيل صورة معينة لديه، ويهدف من خلال هذه الأعمال إلى تشييع الألمان إلى الهجرة للجزائر والإقامة بها، واتخاذها كمستعمرة.

وهنا نجد أن "**أبو العيد دودو**" قد أبدى قدرا لابأس به من الحياد، والموضوعية في المعالجة والطرح، لأنه "ينبغي أن يضع في أذهاننا دائما أن المؤلف أي المؤلف كان، عرضه للخطأ في المعلومات التي يقدمها، فقد يعود هذا الخطأ إلى عدم معرفته للغتنا الوطنية، وقلة اطلاعه على الأحداث القومية اطلاعا مباشرا أو لشرعه في الحكم دون تحري الحقائق التاريخية أو لتعلقه بوجهة نظر معينة، فالمؤرخ الجزائري حر بعد ذلك في أن يرفضه، ويتبناه بعد مناقشة علمية رزينة نجد أبو العيد دودو في هذا الكتاب يعقد مقارنة بين الحقائق والأحداث التي عاشتها الجزائر، وتلك التي تحدث عنها هؤلاء.

صورة الفرنسي في أدب الطاهر وطار:

هذه الدراسة قام بها الدكتور "**أحمد شريبط**" في العدد الخامس والخمسين (55) من مجلة آمال سنة 1982، وهي عبارة عن رصد لصورة الفرنسي في روايتين ومجموعتين قصصيتين للأديب الجزائري "**الطاهر وطار**"[1].

[1] أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان– ص 80.

وهنا نجد أن "**أحمد شريبط**" قد اتجه في دراسته هذه وجهة معاكسة تماما، حيث ناقش في دراسته للآخر الفرنسي في خطابه الروائي والقصصي، وهو يحلل هذه الرؤية في سياقها التشكيلي الفني، والإيديولوجي بهاذين الخطابين.

صورة الصحراء الجزائرية بين "إيتيان دينيه Etienne Dine " و"إيزابيل ايبر هاردت Esabel Eber Hardet ":

في هذه الدراسة يقوم الباحث "**عثمان بلميلود**" دراسة حداثية من حيث الموضوع والمنهج على حد سواء، وقد قدم هذا البحث إلى كلية الآداب بجامعة وهران لنيل شهادة الماجيستر في الدراسات المقارنة سنة 2001.

ويعد هذا البحث في مجمله عبارة عن استنتاج واستقراء لصورة الصحراء الجزائرية من خلال قصص إيزابيل إيبر هاردت وقصة "خضرة" راقصة أولاد نايل "**لإيتيان**" "**نصر الدين**" "**دينيه**" من خلال "استقراء واستنطاق بعض من لوحاته."Tableau de la vie arrabé .

ويتكلم الباحث عن سبب جمعه ومقارنته لهاذين الأدبين الرومنسيين إلى أنهما[1]: "استقراء في المجتمع الجزائري وتمكنا من الكثير من عناصره، وثوابته اللغوية والعقيدية والاجتماعية وهنا في هذه الدراسة أراد الباحث أن يعرف رؤية كل من "**إيتيان دينيه**" و"**إيزابيل ايبر هاردت**" للصحراء الجزائرية هل اعتمد على المنهج ذاته بحكم إقامتهما بالجزائر، واحتكاكهما بالمجتمع الجزائري، واطلاعها على بعض من عاداته وعن لغته ودينه؟

[1] عثمان بلميلود، صورة أولاد نايل في الأدب الفرنسي 1830-1930، أطروحة دكتوراه مخطوطة، الآداب، جامعة وهران، الجزائر، 2008.

1-صورة المجتمع الجزائري في أدب الرحالة الفرنسيين:

يعود الباحث "**عثمان بلميلود**" يتمرس أكثر في حقل الصورائية من خلال بحثه "صورة أولاد نايل في الأدب الفرنسي من 1830- 1930" وهو عبارة عن أطروحة تقدم بها إلى كلية الآداب بجامعة وهران لنيل درجة الدكتوراه سنة 2008، وهذه الدراسة قد رصدت الصورة الطبيعية للمجتمع الجزائري في مخيال الآخر (الفرنسي) من خلال أخذ بيئة ومجتمع أولاد نايل كحقل تطبيقي، وفضاء للدراسة، مشتغلا على توسيع مجال المقارنة إلى عدد كبير من الكتاب الإستعماريين الذين زاروا أو كتبوا عن رحلاتهم ومغامراتهم إلى الجزائر، ودول الساحل الإفريقي أمثال: "**الجنرال أوجين دوماسEugene Dumes** " و"**إميل ماسكيري Emil Mosqueray**"[1].

2- صورة العربي بين "فرانس كافكاFranz Kafka " و"ألبير كامو Albert Gamus":

وهي دراسة تقدمت بها "**معربي هوارية**" في حقل الصورائية المقارنة، إلى كلية الآداب والفنون بجامعة وهران سنة 2003 لنيل شهادة الماجستر في الأدب العربي.

[1] المرجع السابق، ص 40.

في هذا البحث جمعت الباحثة بين الأديبين "**فرانس كافا**" و"**ألبير كامو**" لكثرة نقاط الالتقاء بينهما حيث أنها حققت نوعا من التقارب فضلا عن كون كامو هو الذي قرأ لـ "**كافكا**" واطلع على طريقة تفكيره ومواقفه تجاه الموضوعات التي عالجها في أدبه[1]

إنّ هذا التقارب بين هذين الأديبين هو الظروف المعيشية المتشابهة التي مرا بها، وتجاربهم المختلفة، وهذا ما أفرز لديهم تقاربا على مستوى التجارب الأدبية.

في هذا البحث أرادت الباحثة الكشف عن تفاصيل الصورة التي تشكله في ذهنية الكاتبين عن العربي ولهذا قامت الباحثة في سياق ذلك بتقديم قراءة تقابلية بين صورة العربي في قصتي "بنات أول وعرب" و"صفحة قديمة"، ورواية "الغريب".[2]

صورة الجزائر في الأدب الفرنسي "غي دي موباسان Gy De Maupassant " و"ألبير كامو":

هي دراسة تحليلية وصفية تقدمه "**أمينة سوفلان**" إلى كلية الآداب واللغات بجامعة بن يوسف بن خدة بالجزائر سنة 2009 لنيل شهادة الماجستير في قضايا الأدب والدراسات النقدية والمقارنة وقد عالجت في هذه الدراسة محاور كبرى كالصورة ومجال دراستها في الأدب المقارن، ثم تطرقت الباحثة إلى الحديث عن أوليات ظهور صورة الجزائر في الوعي الفرنسي، مع التطرق إلى الكاتبين "**غي دي موباسان– Gy De Maupassant** "و"**ألبير**

[1] معربي هوارية، صورة العربي بين فرانس كافا وألبير كامو، رسالة ماجيستر مخطوطة، الأخضر بن عبد الله، كلية الدداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، 2003، ص 201.

[2] عثمان بلميلود، صورة أولاد نايل في الأدب الفرنسي 1830–1930، ص 50.

كامو Albert Gamus– " وعلاقتهما بالجزائر ثم إجراء دراسة تحليلية ووضعية لنصوص مختارة فيما يخص[1] صورة الجزائر في الأدب الفرنسي، مع تأويلها، كما تجلت في الثقافة والملاحظ في هذه الدراسة أنها رصدت الصورة وتتبعت مواطن تجليها عبر الوحدات المشكلة للخطاب بما في ذلك الأشخاص، والأماكن والزمن بأنواعه الخطي والتاريخي، والأسطوري، والعمل على رصد كل حركات الأشخاص ضمن السياق العام للنص، بالإضافة إلى طبيعة المعجم اللغوي، والأنماط أي الوحدات الإيديولوجية المتصلة ببعض الممارسات السلبية كالسرقة والإجرام والعنف والتخلف والجهل والكذب وغيرهما[2].

لقد تعمدت الباحثة في هذه الدراسة تأويل صورة الجزائر والوقوف على كيفية تجليها في الثقافة الفرنسية، مع التركيز على صورة العربي (الجزائري) وقد وصلت الباحثة إلى استخلاص مواقف كلا الكاتبين من الجزائر، وثورتها، ثم القيام بموازنة بين هذه المواقف.

والملاحظ حول هذه الدراسات بين التنظير والتطبيق، اعتمادا على دراسات وبحوث أدبية مقارنة سابقة، بالنظر إلى ما تقدم ذكره عن البحث في حقل الصورائية فإن هذا الحقل قد لقي اهتمام الدارسين الجزائريين والمغاربة والمشارقة، نظرا لأهمية هذا النوع من البحوث في توجيه مسار العلاقات الدولية بين الشعوب وتحقيق التقارب فيما بينهما[3].

---

[1] أمينة سوغلان، صورة الجزائر في الأدب الفرنسي، غي دي موباسان، وألبير كامو، رسالة ماجيستير مخطوطة، إشراف، عبد القادر بوزيدة، جامعة الجزائر، 2008–2009.

[2] المرجع نفسه، ص 296.

[3] المرجع السابق، ص51.

قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية ومنها مدينة مراكش المغربية التي استقرت فيها مدة عامين، وقد تناولت في أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة برلين موضوع "أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية" وتناولت في مؤلفها الصادر عام 1955م بعنوان "الرجل والمرأة" فضل العرب على الحضارة الغربية خاصة والإنسانية بصفة عامة.

يتلهف العرب والمسلمون على الدراسات والأبحاث "**زيغريد هونكه**" التي مازالت تقول عن الإنسان الكثير، ولم يستطع أن تخفي اعجابها برسول الإسلام، أعطى أن يعطي للمجتمع صورة جديدة برسالته[1].

[1] أحمد حامد، الإسلام ورسوله في فكر هؤولاء، ص 98.

الحركات الإستشراقية:

إن الدّراسات اللاهوتية قد اهتمت بالديانة الإسلامية في سياق اهتمامها بدراسة الديانات العامة.

وهناك نجذ الدراسات الاستشراقية تأخذ بعدا آخر حيث راحت تخدم مصالح أوروبا خاصة سياسياتها الاستعمارية، وهكذا كان أهم ما يعاب على هذه الدراسات خلوها من الموضوعية، والأمانة العلمية في نقل الأحداث والتعبير عنها.

وتعني الحركة الاستشراقية تلك الموجة من الوافدين الغربيين الذّين عنوا لدراسة اللغات والمؤلفات، والتراث الشرقي بصفة عامة، وترجمته إلى لغاتهم، وقد بدأت هذه الحركة تحت غطاء ديني مع توالي أفواج الحجيج المسيحيين الأوروبيين الذين وفدوا إلى الأرائي المقدسة بغية تعلم لغات الكتاب المقدس. لتتطور بشكل بارز مطلع القرن السابع عشر مع مستشرقين وجدوا في الثقافة كنزا للمعرفة[1].

وكثيرا ما تساهم الحروب والحملات العسكرية في تطور حركة الاستشراق، وهنا نضرب مثال: حملة "**نابوليون بونابرت**" على مصر سنة (1797- 1801) التي تشكلت حلبة الصراع بين العالمين الشرقي والغربي، وكان لها تأثير كبير على تطور حركة الاستشراق والاهتمام به.

[1] ناجي عويجان، تطور صورة الشرق في الأدب الانجليزي، ترجمة: تالاصباغ، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 205.

ولذلك فإنّ الصورة التي رسمها المستشرقون للشرق ليست على الشاكلة ذاتها، "فمن قرأ كتابين أو ثلاثة كتب الرحالة المتعلقة بالقرن السسابع عشر، فكأنه قرأ العشرات منها، حيث تتبلور التمثيلات فيها كنماذج، فمن يبحث عن الصورة النمطية للاستبدال الشرقي فإنّه يقرأ ماسيونيون[1].

فقد نظر كل مستشرق إلى الشرق من زاوية معينة ذات طبيعة مختلفة، أمّا سياسية أو اجتماعية أو ثقافية، إلاّ أنّ زاوية النظر سواء كانت إيجابية أو سلبية، فإنّها تقدم نماذج حية عن الصورة التي تشكلها الذهنية الغربية عن الشرق. وهنا نتكلم عن دور الدراسات الاستشراقية في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية، بل "أسهم المستشرقون في كتابة دراسات عن التراث العربي الإسلامي، فأخرجوا عشرات المخطوطات واهتموا بالبراديات الغربية، ودرسوا ظهور الإسلام وانتشاره وفلسفته، وترجموا القرآن الكريم، واهتموا بقراءاته، واهتموا بالحديث النّبوي، وصنفوا معجما مفهرسا لألفاظه ودرسوا شخصية الرّسول عليه السلام، كما قدموا دراسات تاريخية عن بلاد العرب منذ الجاهلية، واعتنوا بالفلسفة الإسلامية، ودرسوا علوم الحضارة الإسلامية وفنونها، ولغاتها وآدابها"[2].

لقد عرفت الفترة الحديثة وفود العديد من المستشرقين الغربيين ومن أهم هؤولاء: نذكر على سبيل المثال:

[1] يوسف بكار– خليل الشيخ، الأدب المقارن، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات بالتعاون جامعة القدس المفتوحة، القاهرة، مصر، 2009، ص 214.

[2] ناجي عويجان، تطور صورة الشرق في الأدب الانجليزي، ص 213.

✓**زيغريد هونكه Sigrid Hunke:**

مستشرقة وكاتبة ألمانية واسعة الشهرة، لها شهرة عند العرب "زوجة المستشرق الألماني الدكتور "**سولتز**" عاشق العرب وآدابهم، وفنونهم، حبها لدراسة الأديان، جعلها تدرس الإسلام دراسة واعية متأنية، مما جعلها تقدم بحثا موسوعيا عن الإسلام، وامتداد أثره على العالم وذلك في دراستها "شمس العرب تشرق على الغرب" استطاعت أن تعطي من خلال حبها للإسلام فرصة ليعرفه الأوروبيون من خلالها[1].

[1] أحمد حامد، الإسلام ورسوله في فكر هؤولاء، دار الشعب للصّحافة والطّباعة والنشر، القاهرة، 1991، ص 98.

الفصل الثالث

صورة العرب عند الرحالة الفرنسيين

- الإسلام في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر:

ظلّت مكة تداعب مخيلة غير المسلمين الذين لم يكن مسموحا لهم دخولها، ونسجت الحكايات والأساطير الغربية الأوروبية حولها مناسك المسلمين فيها

وسواء كانت تلك الحكايات صحيحة أم من وحي خيالهم، فإن تركت أثرا في نفوس الأوروبيين الغربيين غير المسلمين جعلت فئات منهم تتوق شوقا لزيارة مكة. وبدأت رحلات الأوروبيين نحو مكة المكرمة منذ مرحلة مبكرة ضاربة في العصور الوسطى وحتى العصر الحديث، وربما بلغت حتى القرن التاسع عشر الميلادي نحو اثني عشرة رحلة. وشهد القرن العشرون عددا متزايدا بدرجة ملحوظة في أعداد الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة سواء ظاهرين أم متخفين في الزي الإسلامي تارة وفي لباس الحج تارة أخرى[1].

ويعد جول جرفيه كورتيلمون، أحد الأوروبيين القلائل الذين استطاعوا تحقيق رغباتهم في دخول حرمي مكة المكرمة والمدينة في وقت كان يصعب على غير المسلم الدخول إليهما، فضلا عن استخدام الكاميرا لالتقاط الصور الفوتوغرافية. وتحفظ لنا المصادر التاريخية أسماء أشخاص، قاموا بهذه الرحلة وحققوا مبتغاهم، مثل دومنغوباديا، ريتشارد برتون وليون روش. ورحالتنا مصور فوتوغرافي فرنسي كان مقيما في الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر، وكان واحدا من الفرنسيين الذين هاموا بالمشرق وأحبوا حياته الرومانسية بصدق المشاعر وأصالة الأخلاق والقيم الإنسانية، وأثاره قيام القنصل الفرنسي ليون روش

[1] عمرو عبد العزيز منير، منذ 4 مارس 2016.

في عام 1841م برحلة حج من الجزائر إلى مكة المكرمة فقرر في عام 1841 القيام مماثلة على خطاه، ليختبر بنفسه هذه التجربة الروحية الفريدة، وسافر بجواز السفر يحمل اسم عبد الله بن البشير. كان شغوفا بحب الاستطلاع فشرع بالاهتمام بالإسلام، هذا الدين الذي يحيط به من كل جهة في حياته منذ وصوله إلى الجزائر، وكانت فيها آنذاك جمعية كبيرة هي "كونكورديا" تضم الأدباء والمثقفين، وغالبية أعضائها من عليه القوم في الجزائر، يغدو كثير منهم من كبار الصحافيين في الجزائر وباريس، ومن ممارسي المعاملات التجارية الكبرى، عقد كورتيلمون صداقات مع عدد من أعضاء هذه الجمعية، وعرف كيف يستثمر هذه الصداقات[1].

وكان كورتيلمون محبا للترحال، فسافر إلى مناطق مختلفة من الجزائر والقاهرة والقدس ودمشق، وعاد بزاد من الصور التي نشرها في مجلة أسسها، وكان يعرض صوره للبيع في معرضه في شارع "ترواكولور" في مدينة الجزائر العاصمة، وبسبب ما يسمعه من الحجاج القادمين من مكة أحب أن يذهب إليها ويرى بنفسه ويصور هذه المدينة المقدسة، يقول: "رغبت في كشف سر هذه المدينة المقدسة ليس لإتمام رحلتي كبقية الرحلات، وإنما الدافع هو أن أكمل أبحاثي حول الشرق المعاصر[2]، هذا الشرق المسلم الذي أخذت على عاتقي أمر وصفه مجتازا إياه بكل الاتجاهات، لقد أمضيت شبابي فيه وأنا أحبه كما يحبه كل من عرفه". وعن حبه للإسلام وأهله يقول: " أما بالنسبة إلي فأنا أحب الشرق بسمائه

[1] عمرو عبد العزيز منير، منذ 4 مارس 2016.

[2] المرجع نفسه، ص 80.

الزرقاء، وأحب الإسلام ببساطته، وأعجب بمعتقداته الراسخة". تعرف إلى من الجزائر"**الحاج أكلي**" وعرّفه برغبته في الذهاب إلى مكة، فعرض فكرته على حاكم الجزائر الفرنسي "**كامبون**" فأبدى اهتماما وأعطاه جواز سفر باسم "**عبد الله بن بشير**"، ولكن على مسؤوليته الخاصة، وانطلق في الرحلة علم 1894، وكان له العمر 31 سنة، وأعلن حبه للإسلام ومارس شعائر الصلاة، والصيام الحج بكل تقى، وتفاعل مع أصدقائه من الجزائريين ومن أهل الحجاز بكل مودة، وإن كان خشي من الإقرار بإسلامه في كتابه هذا الذي نشر في فرنسا عام 1896، فأدعى أنه: "يجب الإسلام ببساطته ومعتقداته الراسخة، من دون أن تكون له الجرأة على اعتناقها."

لكن مع ذلك يبقى الكتاب وثيقة وجدانية شفافة تدل على تفاعل إيجابي حميم من مثقف غربي تجاه حضارتنا الإسلامية. ثم قام برحلة إلى إقليم التبت في الصين عام 1902 ونشر وقائع رحلته في كتاب عام 1904، واستغرقت تلك الرحلة أكثر من سنة، وبعد عودته ذهب إلى باريس وألقي محاضراته عن مكة والتبت وعرض صور تلك الرحلات، وعايش كورتيلمون إنشاء سكة دمشق، المدينة المنورة، واشتغل فيها 55 مهندسا تركيا بالإضافة إلى مهندسين غربيين، أحدهما فرنسي والآخر ألماني "**مايسنر**"[1].

كما تمت الاستعانة بنحو سبعة آلاف جندي من الجيش التركي، وكلف المشرع 93 مليون فرنك فرنسي، وبلغ طول السكة 1320كلم، ودشنت مع نهاية فصل صيف عام

[1] أحمد الصاوي، مجلة اتحاد، الأحد 27 شعبان 1439هـ، 13 ماي 2015.

1910، ولما كان انتشار وباء الكوليرا خلال رحلة "**كورتيلمون**" إلى مكة المكرمة عام 1894 منه من زيادة المدينة المنورة للصلاة في المسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، والتشرف بالسلام عليه، فقد عمل المستحيل للتوجه على متن القطار إلى المدينة المنورة من أجل التقاط الصور للمسجد النبوي الشريف، على وجه الخصوص، والمدينة العموم[1].

وفي أوائل أيلون (سبتمبر) 1910 استقل القطار مع أعضاء لجنة تنظيمية كان إرسالها لحضور حفلة تدشين محطة سكة الحديد في المدينة المنورة، وقام بالتقاط صور كثيرة، منها صور للمسجد النبوي الشريف، وهي من أقدم الصور الملونة لهذا المسجد، وتوجد هذه الوثيقة التاريخية في متحف روبير لينين السينمائي في باريس، وأول طبعة صدرت لكتابه نشرتها مكتبة هاشيت في باريس عام 1896، وسرعان ما تلتها طبعة ثانية في العام ذاته نظرا إلى إقبال القراء عليه ولجمالية صوره التي تعد من أوائل ما أطلع عليه الأوروبيون من صور مكة في ذلك العصر، حتى أنها أتت بعد فترة غير طويلة مما نشره الهولندي "**كريستيان سنوكهورخرونيه**" **(الحاج عبد الغفار)**، في كتابه " أطلس الصور عن مكة" الذي صدر في لاهاي عام 1888[2].

ونشر "**كورتيلمون**" في كتابه 33 صورة بالإضافة إلى صور بانورامية لمكة المكرمة مطوية داخل الكتاب، وعدا عن ذلك قام في عام 1897 بنشر مجموعة جديدة من الصور التي سجل من خلالها وقائع الحياة الاجتماعية للمسلمين ووصفه الأدبي بما خطه من أوراق

[1] أحمد الصاوي، مجلة اتحاد، الأحد 27 شعبان 1439هـ، 13 ماي 2015.

[2] المرجع نفسه، ص25.

بعد عودته إلى موطنه كأوروبي موشح باحترام حاج لبيان صورة مكة تسمو بها مضامينها ومحتوياتها لتشكل "وثيقة"، ومصدرا، وأداة لا غنى لمؤرخ المدينة عنها، جنبا إلى جنب مع وثائق ومصادر وأدوات ووسائل أخرى، في الطريق إلى كتابة تاريخ مكة ودراسته.

يستحق هذا الكتاب الذي أعطاه مؤلفه "**شارل ديدييه**" عنوان "رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر، شريف مكة المكرمة" اهتماما واسعا من القراء العرب لأن مؤلفه فرنسي وكتابات الفرنسيين عن شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر تبدو أقل مما سجله الإنجليزية والألمان، وكتاب "**ديدييه**" يبرهن على أن فرنسا كانت لديها أسبابها للاهتمام بالأحوال في جزيرة العرب وهذا الاهتمام كانت له جوانبه الخاصة التي تختلف كثيرا عن اهتمامات الدول الأوروبية الأخرى.

ويعنى المؤلف بالجوانب الإنسانية ويركز أكثر من غيره على الإنسان العربي في مقارنات ذات دلالة واضحة مع الأمم الأخرى ومعلوماته عن النواحي الثقافية والأخلاقية أكثر أهمية وحيوية من تلك التي وردت في رحلات الأوروبيين في تلك الفترة[1].

و"**شارل ديدييه**" وإن حمل الجنسية السويسرية فقد ظّل يحمل الوفاء لموطنه الأصلي فرنسا، ويعتقد د. محمد خير البقاعي مترجم نص رحلته من الفرنسية أنه كان على الأرجح في مهمة شبه رسمية لاستطلاع رأي شريف مكة بشأن الصراع بين إنجليترا وفرنسا وروسيا حول اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية وشريف مكة في السنة التي زار فيها ديدييه الحجاز عام

[1] أحمد الصاوي، مجلة اتحاد، ص 26.

18م وهو "**عبد المطلب ابن غالب**" قد عامل الفرنسي ورفيقه البريطاني في الرحلة القس هاملتون على أنهما مبعوثان من دولتهما لاستطلاع أحوال بلاد العرب ومعرفة آراء شريف مكة السياسية.

وتحفل رحلة "**ديدييه**" بتفاصيل مفعمة بالحيوية عن أحوال ميناء السويس نقطة انطلاقه إلى جدة وقد حمل على الخديو عباس حلمي الأول وسياسته التي أدت إلى إبعاد كل الفرنسيين الذين عملوا في خدمة والده محمد علي باشا وتقريب البريطانيين بدلا منهم، مثلما تحوي أيضا ملاحظات دقيقة عن جدة والطائف فضلا عن أوصاف شاعرية لمعالم بلاد العرب والتي كان ديدييه يملي أوصافها من ذاكرته بعد أن فقد القدرة على الإبصار عند كتابة مذكرات رحلته تلك في عام 1856م، قبل أن يبلغ عامه الستين.

كان شريف مكة آنذاك يقيم في الطائف تحسبا لهجوم الباشا العثماني ضده، وكتب ديدييه يشيد بكرم الضيافة الذي قوبل به هو رفيقه البريطاني ويورد نصوصا صادقة لرؤية هذا الأوروبي لشبه الجزيرة العربية وأهلها.

ويتحدث "**ديدييه**" عن البدو الذين صادفهم على مقربة من جبل عرفات وملابسهم وأسلحتهم، كانت الزرقاء تغطي رؤوسهم ووضع عليها عقال أسود مصنوع من خليط من الشمع والزبد والراتج المعجونة معا وحواف العقال الخارجية مزينة بعروق اللؤلؤ[1]. وكان هؤلاء الرجال طوالا ممشوقي القوام وقسماتهم متناغمة وبشرتهم سمراء داكنة وكان بينهم أطفال

[1] المرجع السابق، ص 27.

تتجاوز أعمارهم عشرة أو اثني عشر عاما يلبسون كالرجال ويتسلحون بمثل سلاحهم وكانوا في غاية الكياسة.

ويقول: شد انتباهي السلوك الأبي والمؤدب في الوقت نفسه لدى الرجال فقد كانوا يحدثوننا دون ارتباك وكنا نلمس لديهم الاستقلالية وعزة النفس وضربا من النبل الغريزي الذي لم يستطع أي احتكاك بالأجنبي أن يفسده عليهم في عمق صحرائهم. وكانوا أول بدو أشاهدهم في بيئتهم الحقيقية وحملت لهم منذ تلك اللحظة احتراما واستلطافا بلا حدود.

أما لقاء شريف مكة عبد المطلب يشارل ديدييه والقس "**هاملتون فجدير**" بأن يلقى عناية المؤرخين، إذ رغم العناية التي أولاها كامل بالتقاليد التي كانت توفر للشريف مكانة خاصة يستحقها ليس فقط لإشرافه على الحج ولكن قبل ذلك وبعده لانتسابه لآل البيت، وقد سجل ديدييه لأن كونه الشريف الأكبر وأمير مكة المكرمة يحتم عليه ألا ينهض لأحد إلا للسلطان الأكبر الذي ينهض هو بدوره له[1]. وإذا أراد الشريف أم أحد زواره فإنه يحرص على ألا يكون موجودا في المجلس عند الزائر كي لا يستقبله جالسا فهو لا يدخل إلا بعده محافظا بهذه الطريقة على أصول الياقة ومحتفظا أيضا بما يتميز به. ويصف ديدييه الشريف الأكبر بأنه " كان شيخا جليلا يبلغ الستين من العمر طويل القامة نحيلا تلمس النبل في تصرفاته والتميز في كل جوانب شخصيته" ولم يكن المظهر وحده الذي استقطب اهتمام وإعجاب الفرنسي بل أيضا إطلاعه الواسع على ما كان يجري في أوروبا بين الأقطاب

[1] أحمد الصاوي، مجلة اتحاد، ص 30.

الكبرى إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا. ويقول "كان يطرح علي أسئلة تظهر حسن إطلاعه على الأمور وفهمه العميق للوضع لقد بدا لي منفتحا بقدر ما هو مستقل."

ونلمح في حديث ديدييه تبدلا في الأدوار ينم عن ذكاء الشريف، إذ حرص على أن يعرف من الفرنسي دقائق ما جرى في فرنسا عندما تولى نابليون الثالث الحكم في عام 1851م، وحول البلاد من جمهورية إلى إمبراطورية وراثية، وانطلق "**ديدييه**" يصف له ما جرى بوصفه شاهد عيان أما ما كان يسعى الرحالة الفرنسي إلى معرفته، أي موقف الشريف من أطماع كل من روسيا وفرنسا وإنجلترا في الممتلكات العثمانية، فإنه لم يظفر منه بشيء ويقول "حاولت أن ألمح تلميحات بعيدة وغير مباشرة إلى موقفه الخاص وموقف بلده ولكنه لم يود التنبيه إليها وظل متمسكا في هذا الخصوص بتحفظ لم يتخل عنه لحظة واحدة ."

وتحدث "**ديدييه**" لشريف مكة عن المعرض الصناعي الكبير الذي كان يعد له حينئذ في باريس **ويقول:** "لما دعوت الشريف الأكبر إلى أن أرسل إلى المعرض نماذج من المصنوعات المحيلة وأكدت له أنها سوف تلقى هناك بعض الرواج أجانبي ضاحكا: نعم أنه زواج إثارة السخرية."[1]

ويعقد ديدييه مقارنة بين رفيقه البريطاني والعرب الذين شاهم في رحلته، فيصف الإنجليز بأنهم نموذج للغرطرسة " ورأيتهم في كل الأماكن يخضعون خضوعا تاما للقوى الحاكمة سواء كانت مغتصبة أو شرعية ويعلمون كل الطبقات تقديس المراكز الاجتماعية،

[1] أحمد الصاوي، مجلة اتحاد، ص 31.

لقد ولدوا ونشئوا على أرض الإقطاعيين وشربوا مع حليب أمهاتهم روح الطبقية التي هي أساس تشريعهم الاجتماعي فالانجليز أكثر الشعوب زهوا ويجهلون أبسط مفاهيم المساواة."

- العرب والإنجليز

ويفضل "**ديدييه**" العرب على الإنجليز بسبب عزة النفس الفطرية لدى بدو الصحراء الذين يقتربون من أكبر الشخصيات بثقة ويحدثونهم بحرية ولا يتنازلون أمام أي كائن عن الأنفة المشروعة التي تليق بالرجال ويبدو ذلك واضحا في علاقتهم وشيوخ القبائل فهم لا يذهبون إلى خيامهم لطلب الضيافة وهم يفعلون مثل ذلك مع الشريف الأكبر نفسه إذ يعدون قصره مثل مخازن غلالهم.

وعندما يعقد المقارنة بين الأتراك والعرب يرى أن الأمة العربية متفوقة على الأتراك في كل المجالات "إنها أمة عالمة ومثقفة نبعث في العلوم قدر ما نبعث في الفن والحروب لقد كانت خلال أمد طويل أمة مبتكرة حيثما قادما حماسها الدينين لقد كانت لها مدارس تزدهر فيها دراسة الطب والعمارة والرياضيات والفلك وفي هذه المدارس تعلم الغرب وأبدعت هذه الأمة روائع أدبية ما زالت حتى اليوم متعة العقول المثقفة كلها وماذا لدى الأتراك في موازاة ذلك سوى الجهل والوحشية[1] ."

[1] أحمد الصاوي، مجلة اتحاد، ص 33.

وتستحق إحدى عباراته أن تسجل في زماننا هذا عندما يتحدث عن ضرورة استقلال العرب "ولست أرى سببا وجيها للكيل بمكيالين بأن ننكر على العرب تطلعهم للاستقلال ونجد ذلك عدلا عند الإيطاليين، وعند كل الشعوب الأوروبية التي تعاني السيطرة الأجنبية. "

استقطبت شبه الجزيرة العربية– وتاريخيا يطلق عليها جزيرة العرب أو الجزيرة العربية، كما تعرف أيضا بشبه القارة العربية، غلا أنّ هذه التسمية غير منتشرة في الأوساط العربية كما في غيرها. اهتمام الكثير من الباحثين والرحالة والمستكشفين من مختلف أرجاء العالم منذ أوائل القرنيين الماضيين.

فهي تمثل مركز جذب لكثير من الشعوب والتجارة والغزاة والمهتمون منذ فترة قديمة ترجع إلى ماقبل الميلاد، بسبب تميزت به من كونها إحدى مناطق الحضارات القديمة وملتقى الطرق التجارية، ونقطة اتصال مع بقية الأمم فضلا عن وجود الأماكن الإسلامية المقدسة واحتضانها العديد من كبرى حضارات العالم التاريخية إلى جانب موقعها الجغرافي الذي يضعها في العالم القديم وبجانب الطرق الرئيسية للتجارة إضافة إلى ما برز في هذه المنطقة من أجداث سياسية كان لها أثر عظيم في شعوبهاوصدى خارجي قوي لدى الدول الأخرى[1].

مما جعل الرحالة المستكشفين من هواة جمع الطيور النادرة والحيوانات الغربية في الأراضي النائية، يخوضون المغامرات محفوفة بخطر الموت والجوع والخوف في سبيل

[1] أحمد الصاوي، مجلة اتحاد، ص 34.

اكتشاف جزيرة العرب، والأغراض متباينة وأحيانا غامضة فشغف الاكتشاف ربما كان من أهم الدوافع لمغامراتهم ورحلاتهم الاستكشافية هذا العالم أرضا وبشرا والتعرف على أدق تفاصيل حياته وسلوكياته، ولقد كانت هذه الطرائق تبدأ تحت لافتات بريئة مثل: التنقيب عن الآثار، أو الاستكشافات العلمية أو حتى رحلات الصيد الترفيهية[1].

والآن عزيزي القارئ لعلك تتساءل ترى ماهو الدافع الحقيقي إلى تأليف هذه الكتب وأكثر عن الجزيرة العربية؟ وهل هو بدافع عبارة "**دوتي**" التي تقول: "إن ثراء الجزيرة العربية الجرداء شديدة التعدد والتنوع؟" أو أن أية رحلة إلى الصحراء يمكن أن تكون عامرة بالأحداث شأنها شأن أية رحلة أخرى؟ أم هو إثبات أن الاهتمام القليل يمكن أن يتطور إلى رحلة لا تنتهي من رحلات الاستكشاف؟

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب تلتقي في الخط العربي لأبعاد الزمانية لأنه يمثل معظم فترات التاريخ الإسلامي والمكانية، لأنه يشمل الرقعة الإسلامية الواسعة والموضوعية، لأنه يشكل مجالات الفن الإسلامي في صورة تميز وحدة الأمة الإسلامية في عقيدتها وتاريخها وعلومها وفنونها "ويضيف" يحفظ الخظ العربي كل ما انتجته الحضارة الاسلامية ويزين كل مائيده العرب والمسلمين ولذلك عد الفن الأكثر صلة بما أبعده العرب من إنتاج متنوع، لأنه

[1] هبة كمال سعد– الخط العربي في كتابات الرحالة الغربيين– 5 سبتمبر 2017 مجلة علي عفيفي علي غازي– العدد 240.

الانتاج الأول الذّي ازدهر مع هذه الحضارة، وأعتبر أعظم ابداعاتها وقدم لإبعادها التجسيد المادي على الورق والجدران، والأواني"[1].

يثير الخط العربي انتباه واعجاب الرحالة الغربيين الذي زاروا المنطقة العربية فأحسو بجمال وقيمة الحرف العربي بل أن بعضهم تعلم الخظ العربي بما لمسوه فيه من روعة الفن، بالإضافة لأداة المعرفة، فهو الحرف الوحيد الذي جعل من كاتبوه فنا أصيلا وأضافوا له من الزخارف والتهذيب، والتشجير والتوريق ما أضفى عليه جمالا شكليا تفرد به، ولهذا انجذب له الرحالة لما وجدوا فيه[2] من سحر بيان وقام الكثير منهم بنسخ ما صدفهم من خطوط وفي هذا الكتاب يحاول الدكتور غازي أن يرصد ويحلل ما كتبه هؤلاء الرحالة عن ذلك الفن العربي الإسلامي الأصيل.

يستهل الكتاب بمقدمة تعرف بنشأة الخط العربي وتطوره الأسباب التي جعلت العرب والمسلمين يبرعون في ذلك الفن ويتوارثونه كفن ومهنة. ولماذا ينفرد فن الخط ويتميز عن سواه من الفنون الإسلامية الأخرى ويعدد أراء المؤرخين وعلماء اللغة العربية حول التحديد جذور الكتابة العربية ونشأة الخط العربي ثم يستعرض مراحل تطور الخط العربي بداية من الخط المسند وصولا إلى الخط العربي الالكتروني في عصر الجوسسة ويرى أن ذلك

[1] هبة كمال سعد– الخط العربي في كتابات الرحالة الغربيين، ص 3.

[2] شيماء جابر– أهم كتب الرحالة والمستكشفين الغربيين– 2016/05/18، آخر تحديث 2017/12/14.

المورثون المهم يجب أن ينقل للأبناء والأحفاد لأنه يعمق الهوية والانتماء والمواطنة في عصر ما بعد السوبر العدمية[1].

ويستعرض الكتاب بعد ذلك وفق المنهج واحد يبدأ بالرحالة ورحلته وما تركه من مؤلفات وأهميتها التاريخية ثم يرصدها ورد في مؤلفاته عن خط العربي وأنواعه وخاصة الكوفي الذي يتميز باستقامة زواياه ولهذا من السهولة تمييزه عن سائر أنواع الخط العربي ولهذا يتعرف عليه الرحالة والمهتمون بالكتابات والنقوش العربية وأبهر هذا النوع من الخط كل ما شاهده من الرحالة، وإن لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة.

يتناول الكتاب ما ورد عن الخط العربي في ثنايا كتابات الرحالة "**كارشن ايبو رجان – روسو، كلوديس، جيمس ريح، جيمس بكنجهام ، نيقولا سيوفي، جين ديو فوا، يوليس**"، ويختم بقائمة ببلوغرافية للمصادر والمراجع التي اعتمد عليها[2].

صدر كتاب "الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب" من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن 20 لأول مرة في باريس عام 1936 فيما ترجمته إلى العربية لم تر النور إلا مؤخرا بفضل مجهود الأديب والباحث الأكاديمي المغربي "**حسن بكراوي**" (دار الأمان 2017).

[1] شيماء جابز– أهم كتب الرحالة والمستكشفين العربيين.

[2] المرجع نفسه

ويعود أصل الكتاب كما يقول مؤلفه "**روان لوبيل**" في المقدمة إلى دروس ميدانية ألقاها على طلبته في معهد الدراسات المغربية العليا بالرباط خلال ثلاثينيات القرن الماضي وهؤلاء الطلبة كانوا في مجملهم من المراقبين المدنيين وضباط الاستعلامات وموظفي الدولة الحامية ممن كان يجري تعينهم في المغرب وكان نظرا "**الماريشال ليوتي**" (المقيم العام الفرنسي آنذاك) قد ذهب إلى ضرورة أن تزودهم الإدارة الاستعمارية أكد المعقول من المعرفة للغات الزائجة بالبلاد والقدر الضروري من تاريخها الاجتماعي والثقافي، بما في ذلك عادات وتقاليد السكان، وأنظمتهم القبلية والمخزانية وغيرها بشكل يقلل من اعتمادهم على المترجمين ويسهل مهامهم في المناطق التالية التي سيتم تعيينهم لها[1].

ولأن أغلب الكتابات الأجنبية حول المغرب كانت تدخل ضمن الأدب الغرائبي الكلونياني الذي يحتفي بالغريب والعجيب فقد قرر المؤلف استبعاد الكتب الروائية ذات المظهر التخيلي والتي كرس لها كتاب آخر بعنوان "المغرب لدى الروائيين الفرنسيين"، مقتصرا فقط على عرض الرحلات التي قام بها رحالون فرنسيون إلى المغرب من أواسط القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين لكن بالرغم من ذلك سيواجه مشكلة عويصة تتمثل في صعوبة حصر قناة هؤلاء الرحالة بحيث انتهى إلى توزيعهم إلى غاية في الاختلاف والتنوع، أسرى ورهبان ومخبرين ودبلوماسيين ومستكشفين ومغامرين وفنانين وأطباء ورجال أعمال وصحافيين وضباط وعلماء ومجرد سياح مسكونين بالفضول وحب

[1] نجيب مبارك–الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب–استكشاف بلد عتيق–19:25.

الاستطلاع، وغيرهم ومن خلال فصول الكتاب يقدم المؤلف عرضا وتحليلا للكتابات المختلفة التي تركها هؤلاء الرحالة.

النصوص الرحلية وسرود الأسر:

تزامن ظهور المغرب في التاريخ الأدبي لفرنسا مع ظهوره تقريبا في تاريخها السياسي فقد وجد الأدب المتصل بالمغرب منذ نشأته مثلا بصورة حصرية في الكتابات الرحلية وكان من الطبيعي تماما أن يكون الأمر كذلك، فقد كان الرحالة هم الأوائل الذين قدموا أو نشروا في العموم تلك العناصر الإخبارية التي ستشكل منها شيئا فشيئا صورة هذا البلد على أن التمظهرات الأولى لهذا الفضول نحو المغرب لن نجد تسجيلها بالضرورة في الكتابات المنشورة في المكتبات لأن ذلك لن يصير متاحا سوى في وقت لاحق فهي لم تكن في البداية سوى موضوع رسائل ومذكرات مخطوطة محفوظة في أرشيفات المكتبات، وبفضل أعمال "**دوكاستري**" الذي راجع كل المصادر القديمة لتاريخ المغرب أمكن للباحثين أن يتتبعوا خطوة بخطوة تطور علاقة فرنسا بالمغرب.

من جهة أخرى إذا غضضنا الطرف عن بعض الرحلات المنعزلة فإن معظم الأدب المتصل بالمغرب كان في نشأته مشكلا من سرود الأسر أو بعثات الافتداء[1].

[1] نجيب مبارك–الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب–استكشاف بلد عتيق.

رحلة أوجين دولاكروا إلى المغرب:

بالنسبة لرحلات الفنانين يعرض المؤلف للرحلة الشهيرة التي قام بها الرسام الفرنسي "أوجين دولاكروا" إلى المغرب وكانت ذات تأثير كبير على مساره الفني ففي سنة 1832 سيوافق دولاكروا على الانضمام إلى أعضاء السفارة الرسمية م.دومورناي إلى المغرب في عهد السلطان مولاي عبد الرحمان وقد كان دولاكروا حينها في الثالثة والثلاثين من عمره وقد اشتهر برسمه للوحي "قارب داني" و"مذبحة سيو" إلى جانب لوحات أخرى توطت موهبته كرسام حامل للسياسة جديدة[1].

وسيعود دولاكروا من رحلته هاته ليس فقط بعدد هائل من التخطيطات والرسوم التي ستصير فيما بعد موضوعا لكبريات اللوحات وأشهرها ولكنه أيضا سيحمل معه دفتر سفر سينضر بعد ذلك ضمن مذكرات الفنان وإلى جانب ذلك كان قد بعث من المغرب إلى أصدقائه بمجموعة من الرسائل وهذه المراسلات سوف تظهر بدورها في المكتبات وعبر هذه الكتابات المتنوعة يمكن تتبع خطوات دولاكروا في رحلته إلى طنجة ومكناس.

ويؤكد كتاب سيرة دولاكروا أنه رجع من سفره إلى المغرب محملا بكنوز لم تكن حياته كلها تكفيه لكي يسنفذها ذلك لأنه عاد من هناك بلوحات مربية خالصة مثل "لوحة زفاف"[2].

[1] نجيب مبارك–الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب–استكشاف بلد عتيق.

[2] المرجع نفسه.

الرحالة الغربيون بين الخفاء والتجلي:

روايات غربية وعربية تشوه صورة العربي "**يوسف القعيد**" يرى أن العرب في الروايات الغربية غالبا ما يظهرون كحثالة ورعاع فالكتّاب الغربيون لا يهتمون برسم معالم كاملة للشخصية.

لماذا تبدو صورة العربي في الآداب الأجنبية مزيفة على حقيقتها في واقعنا؟

لماذا يحاولون تصوير العربي بأنه إرهابي متعطش لسفك الدماء حتى وإن كان يدافع عن حقوقه؟ صور كثيرة نلمحها في الثقافات الأوربية تهتم الشخصية العربية بالجهل والتخلف والجمود الفكري، حتى أنهم يتخيلون أن مصر ثلاثة أهرامات وجمال.

ويشير البعض إلى أن السبب في تلك النظرة يرجع إلى المستشرقين الذين صوروا العقلية العربية بشكل مغاير ومناف للمواقع، بالإضافة إلى بعض الكتّاب العرب الذين سعوا إلى الشهرة والمصالح الشخصية من خلال كتابة وترجمة أعمال لا تتناسب ولا تعبر عن المجتمع العربي ولا عن الشخصية العربية[1].

الروائي "**يوسف العقيد**" في رأيه أن العرب في الروايات الغربية غالبا ما يظهرون كحثالة ورعاع، فالكتّاب الغربيون لا يهتمون برسم معالم كاملة للشخصية، ولكن يكتفون باستعراض الجوانب السلبية فقط على الرغم من أن خلق شخصية متكاملة هو ما يجعل القارئ يستهوي هذا النوع من القراءات، وفي رأي الروائي والناقد "أبو العاطي أبو النجا" أن

[1] ميدل ايست أونلاين– القاهرة– من وكالة الصحافة العربية.

النظرة السلبية للعربي داخل الأعمال الغربية ترجع إلى عدم معرفة الأدباء بالواقع الثقافي العربي حيث أثر الاستعمار وكثافة الهجرة والعلاقات السياسية المتوترة على تقبل الآخر لشخصياتنا وأعمالنا.

وجاءت أحداث سبتمبر 2001 لترسخ الصورة السلبية في العقول الغربية عن العرب بالإضافة إلى ذلك لم تصل للغرب أعمال كثيرة من إبداعنا لكي يتعرف عليها[1].

ويضيف أدباؤنا العرب في بواكير النهضة العربية ركزوا على الإنسان الأوربي بوصفه الآخر الذي يسعى للتعرف عليه والتعاون معه وليس محاربته بالإضافة إلى أن بعض الروائيين العرب الذين يسعون إلى فرض أنفسهم على الترجمة يتجهون إلى موضوعات تستهوي بحافة الإثارة التي ترصد عيوب المجتمعات العربية لتشفع بها وهناك دار النشر الأجنبية تبحث عن نصوص تتناول موضوعات الجنس والتزمت الديني لتجذب القرّاء فيف رواية "أبواب المسجد" للكاتب "أندي ديلنز" يتحدث عن فتاة فلسطينية تعمل خادمة، ويقتل أخوها وابن الخادمة ويقتل أخوها وابن عمها بواسطة الإسرائيليين وتحاول أن تصبح استشهادية، ولم تستطع ذلك إلا بعد موافقة ولي الأمر وتأخذ إذن أحد أعضاء المقاومة الفلسطينية أنها يجب أن تأخذ إذن رجل قبل القيام بأي شيء، وأضاف غالبية الأعمال التي تتعرض للعرب والمسلمين تناولهم في بيئة سيئة مليئة بالفقر والجهل والقذارة، والعددي من الأعمال تتناول العداء الذي يكنه العرب لليهود وتحاول أن تجسد الخلاف الفلسطيني في

[1] ميدل ايست أونلاين– القاهرة– من وكالة الصحافة العربية.

صورة الخلاف الديني بين اليهودية والإسلام فمعظم الأعمال لا تفرق بين العرب على حساب مسيحي أو مسلم أو علماني بل تضع المجتمع العربي والإسلامي كله في سلة واحدة.

ويضرب مثالا لذلك برواية "البحث عن سناء" للروائي "ريتشارد زيملا" حيث يتحدث الكاتب عن حقيقة سناء الفتاة التي جاءت تطلب توقيعه على أحد كتبه ثم انتحرت، ويبحث عن أسرتها فيجد أن والدها فلسطيني "معاق" يأخذ كلاب المستوطن المقيم في الجوار اليهودي مقابل مبلغ من المال واستخدمته "حماس" للقيام بالعملية الانتحارية داخل إسرائيل لتقوم السلطات الإسرائيلية بالقبض عليه ووضعه في السجن.

ويشير "**علاء الأسواني**" إلى وجود أعمال ركيكة تقدم صورة ذهنية خاطئة مثل الاضطهاد والأقباط والمرأة في العالم العربي وللأسف وسائل الإعلام الغربية تروج وترسخ هذه وتزعم بأن هذا عصر العمالقة قد ولّى وانتهى[1]، فمن خلال تواصله مع القارئ الأوربي أدركت أن هناك صورة نمطية عن الإنسان العربي فهم يحكمون على الأديب أو الإنسان العربي باعتباره أنه يمثل كل المنطقة العربية ولا يمثل نفسه فقط ولذلك عندما يتورط أي شخص عربي في عمل إرهابي أو حتى يصرح بتصريحات عنيفة يتهمون كل العرب بالإرهاب ويكتبون عنه صفات غير موجودة فيه.

[1] عبد الله الركيبي، "الجزائر في عيون الرحالة Algneriain Eyes of Englich travers, دار الحكمة، 91 شارع ديدوش مراد، الجزائر العاصمة، 1600، ص08، الانجليز، 19999.

وهذا يوضح نظرتهم "لولي الأمر" فكتبوا عنها بصورة خاطئة وهذا دليل على عدم معرفة من يكتبون عن العرب بالصورة الحقيقية لمن يكتبون عنهم.

انتقاد مبالغ:

ويرى الناقد "**محمد عبد المطلب**" أستاذ النقد الأدبي في كلية الآداب جامعة عين شمس، أن بعض المفكرين العرب المرتبطين بالغرب يسعون إلى انتقاد الأوضاع العربية بصورة مبالغ فيها وهؤلاء الكتّاب يبالغون في تصوير السلبيات مثل جرائم الشرق والختان، واهتم بها الغرب كثيرا بالإضافة إلى ذلك فالكتّاب الغربيون يتناولون شخصية ضعيفة تؤمن بالخداع والخزعبلات والعفاريت.

- الجزائر في أدبيات الرحالة الانجليز:

التساؤل الذّي طرحه الأستاذ "عبد الله الركيبي" على نفسه عندما أراد أن يصول ويجول في هذا الحقل يقول: ألم يكتب الانجليز عن الجزائر؟

عندما احتلت الجزائر أطرافا من التراب الجزائري لدوافع كثيرة دينية، واقتصادية وحضارية وجغرافية[1]. "وهذا ما دفع بالباحثين والرحالة والمستشرقين إلى أن يولوا وجوههم شطر الجزائر، يدرسون ويسجلون ويكتبون المؤلفات من هذا البلد وعن تشبثه بحريته وسيطرته على المتوسط ولسوء الحظ، فإننا في الجزائر لم نهتم بهده الرحلات التي قام بها الفرنسيون في بلادنا ولست أدري لماذا؟ واهملناها بلا سبب مقنع بل أننا لم نهتم برحلات قام

[1] عبد الله الركيبي، "الجزائر في عيون الرحالة الاجليز، ص08.

بها كثير من الغربيين وربما تفاجأ عندما نعرف انّ هناك "سويديين" قاموا برحلات إلى بلادنا رغم أن السويد "تبدوا بعيدة عن ان تهتم بالجزائر"، ومع ذلك فهناك قلة نادرة اهتمت بهؤلاء الغربيين[1]. أمثال الدكتور "**أبو العيد دودو**"، الذّي عني بما كتبه الألمان في القرن الماضي عن الجزائر، ومثله الأستاذ إسماعيل العربي، وقد اهتم هذا الأخير بالرحلات عامة شرقا وغربا.

أما فيما يخص بالرحلات "الانجليز" إلى الجزائر فإن بعض هذه الرحلات قد تمت في القرن الماضي وبعضها الآخر انجز قبله وفي القرن الحالي أيضا وحتى أثناء ثورة نوفمبر 1954.

" وفي اعتقاد الأستاذ "**عبد الله الركيبي**" أن هذه المؤلفات تفيد المؤرخين الذين تعينهم المصادر المتعددة والنظرة المختلفة، فهناك هواة ومحترفون أعدوا هذه الدراسات أو سجلوا انطباعاتهم العابرة أو تعمقوا في ملامح الواقع الجزائري في فترات كثيرة على مدى قرنين كاملين من الزمن، أو أكثر من ذلك[2]. كذلك الروائيون وخاصة الذين يكتبون الرواية التاريخية يمكنهم أن يستفيدوا من هذه الكتب، فتساعدهم على وصف الطبيعة في ذلك الوقت أو البيئة الجغرافية والاجتماعية في أمكنة محددة وأزمنة متعددة.

[1] عبد الله الركيبي، "الجزائر في عيون الرحالة Algneriain Eyes of Englich travers, دار الحكمة، 91 شارع ديدوش مراد، الجزائر العاصمة، 1600، ص08، الانجليز، 19999.

[2] عبد الله الركيبي، "الجزائر في عيون الرحالة الانجليز – ص 10.

في هذين القرنين مرت الجزائر بأحداث سياسية واجتماعية وثقافية متنوعةيمكن رصدها من خلال هذه الرحلات، كما أن هناك تقاليد تغيرت أو تطورت أو اندثرت إلى جانب أن بعضها استمر حتى اليوم[1].

كل هذه الملامح سجلها الكتاب بالتفصيل أحيانا، ويمكن لعالم الاجتماع أن يجد فيها ما يلائم تخصصه فيقارن بين الأمس واليوم، حتى يبين لنا الصورة الحية عن حياة الناس في هذه المراحل التي مر بها الشعب الجزائري.

إلى جانب هذا كله معلومات كثيرة نقلها هؤولاء الرحالة وركزوا اهتماماتهم عليها لغرض ما، فتنوعت إجتهاداتهم، مشاربهم ونظرتهم إلى واقع الشعب الجزائري وطموحه حتى إن بعضهم اهتم بالتسلية فكانت كتاباته للمتعة والترفيه خاصة حين يصف جمال الطّبيعة الزاخرة بالألوان والتنوع من سماء زرقاء وبحر جميل وصحراء ساحرة وشمس ساطعة وكرم ملحوظ وشجاعة نادرة. وغير ذلك من قيم وأخلاق عرف بها الشعب الجزائري، إلاّ أن يعض من هؤولاء الرحالة لا يتعاطفون مع واقعنا وشعببنا الآخر بشكل واضح، ومن الذين تعاطفوا مع الواقع الجزائري أنذاك الرحالة "**ليدر**"... الذي كتب عن مدينة بسكرة وضواحيها، وأنحى بالائمة على أولئك "الذين لا يعرفون شيئا عن الذهنية العربية ومرونتها وطبيعتها، وهناك يقول "**عبد الله الركيبي**": "إنني حاولت الوصول لإلى ذلك أو قد حصلت على مفتاح السر الذي لم يصل إليه أوروبي قبلي..."[2]

[1] المرجع نفسه، ص 11.

[2] عبد الله الركيبي،"الجزائر في عيون الرحالة"، ص 12.

ويهاجم الكتاب الذين يتعصبون ضد العرب في كتاباتهم للدفاع الحاد عن المسيحية ومحاولة هدم تعاليم الإسلام ومثله صاحب كتاب "جولات في الجزائر وما حولها" الذي لاحظ هو الآخر الفرق بين الشعبين الجزائري والفرنسي والتناقض بين تفكير هؤلاء وأولئك، الذي جعل من الصعب التساكن بين الاثنين فيقول: "أنّ منهاج الحياة وطرائق التفكير للشعبين متضادة، فكل ما يتمسك به العربي يحتقره الفرنسي وكل ما يهتم الفرنسي يرفضه العربي...."

رحلة "**إيزابيل إيبرهاردت**": "**Isabelle Ederhardt**" إلى الصحراء الإفريقية التي خلدتها في عملها "بلاد الرمال" 1914، حيث تقول: "إني بعيدة عن الحضارة الأوروبية ومهازلها المنافقة، إني وحدي في دار السلام، في الصحراء حرة، وأحوال صحية جيدة... الوادي البلد الذي لا تعد قبابه... أريد شراء أرض صالحة للزراعة، وأجعل فيها جنانا بها بئر ونخل.." [1]

لذلك نجد الرحالة وهو يصف ما هو أجنبي عنه قد يعقد مقارنة بينه وبين المكان النى ينتمي إليه أصلا.

وهنا نجد "**إيزابيل هاردت**" تفضح عن نوع من التناقض والصراع الذي راح يجول بداخلها، فتقول "أنا بجسدي في الغرب أقيم، ولكن روحي إلى الشرق تتوق، وقلبي في اسطنبول وقلبي في وهران.

[1] حفناوي بعلي، أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2004، ص 124.

واتعربب في الأخير عن أملها في أن تدفن في إحدى مقابر المسلمين، فتقول: "اتمنى أن أدفن في مقبرة عربية بعد موتي، لأنّ مقبرتنا كئيبة حزينة..."[1]

ما يمكن أن يقال عن هذه الرحلات فإنها إيجابية في طرحها للصورة، حيث يتخللها الإعجاب بجمال الشرق وعظمة الصحراء الجزائرية وطيبة أهلها.

إذا كان هؤولاء الرّحالة يصرخون أحيانا أو يتكتمون أحيانا أخرى أو يعمدون إلى التلميح مرة ثالثة سواء كان ذلك تعاطف معنا أو غيرها فإنّ الأمر الهام هو الإطلاع على ما كتبوا ثم الحكم عليه من وجهة نظرنا نحن.

[1] المرجع نفسه، ص 125.

خاتمـــة

خاتمة

إن الصورة أن استطاعت أن تفتك لذاتها حضورا قويا في مجالات البحث الأدبي المقارن، بما اتسمت به من طابع استراتيجي.

للصورة بعد فني وجمالي فيما يتعلق بمسألة تمثيلها وتشكيلها عبر المتخيل لدى الآخر، غير أن هذه الصورة قد تكون سلبية مخلوطة تحتاج إلى مراجعة، بحكم الملابسات الاجتماعية والسياسية التي عملت على صياغتها من أجل ترسيخ تصور ما، لخدمة أغراض خاصة وأطماع أكثر خصوصية.

للرحلات والاستشراق دور في تشكل الصورة فتحقيق حضورها في متخيل الآخر.

الصورة لا تقتصر على الأدب فقط بل تشمل حقولا معرفية مختلفة.

الرحلة هي انتقال وترحال من موطن لآخر بالإضافة إلى المغامرة والمخاطرة ومرور بتجارب وتعتمد على المشاهد في التعريف وثقافة الآخر.

الرحالة مهما حاول لا يمكنه أن يعطي صورة حقيقية عن الآخر، حتما أنّ الصورة ستنحرف عن واقعيتها، لأنه لا يراعي فيها الموضوعية، بل يراعي المتلقي، وطبيعته السيكولوجية والسوسيولوجية.

تبقى الرحلة تلك الممارسة المفيدة لما تفتحه من آفاق للاتصال والتفاهم بين الشعوب.

الرحالة هي قناة استراتيجية تفسح المجال للتعرف على شعب ما سواء ما تعلق بخصوصياته المادية من عادات وتقاليد.

أدب الرحلة أدب يكشف شخصية الرحال في وصفه للطرف الآخر.

الصّورة التي أنتجتها الآداب الأجنبية بمثابة تخيير وتزييف للحقائق وخلوها من الموضوعية مما ولد سوء فهم وعداء بين الدول والمجتمعات.

للأدباء الرحالة إسهام كبير في تشكيل صورة أمة في أدب أمة أخرى من خلال رصدهم لطبيعة العلاقات التي تسود بين الأمم والشعوب.

الصورة التي تعطيها الأن للآخر هي صورة مشوهة وعدائية مما يرسم ملامح الذات وتحقير من الطرف الآخر.

هناك من قصدوا بلاد الشرق وعائوا بين أهليها ومنهم من دان بديانة أهلها ودفن في جوف ترابها.

ولهذا نقول أن الدّراسات الاستشراقية ليست كلها بريئة دافعها دراسة الحضارة الإسلامية وعلوم العرب، بل كان لها امتدادات تحيل إلى خدمة أغراض استعمارية.

نجد أن الرحالة الغربيين نقلوا إلينا صورا عن العادات والتقاليد والآثار والشواهد وغيرها، وحتى أنهم درسوا نفسية العربي مثل نفسية الشعب الجزائري، والتطورات التي تطرأ عليه، ونقلوا إلينا مشاعرهم نحو الجزائر والتي تتراوح بين الإعجاب والخوف والحقد.

وهنا نجد بعض الرحلات التي قام بها أدباء ورحالة غربيون لأغراض معينة مثل التجسس ومعرفةخصوصيات المجتمع الجزائري وأسراره.

لا توجد عداوة أو ماض مؤلم بيننا وبين الإنجليز، ولعل هذا الجهد يدفع باحثينا وكتابنا ومثقفينا إلى أن ينقبوا عن مثل هذه الكتابات ويبرزو تعاطف أصحابها معنا.

إن قراءة كتبهم هذه قد تدعم علاقتنا معهم مستقبلا مثلما فعل مستشرقوهم في العقود، بل وفي القرون الماضية، بصرف النظر عنا أطلقوا من أحكام قاسية أحيانا عن تاريخنا وحضارتنا وعقيدتنا.

المصادر:

1-ابن بطوطة (محمد بن عبد الله): رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول والثاني- دار الفكر- بيروت- ط1 دت..

2- أبو العلاء، رسالة الغفران، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، د، ت، تحقيق فوزي عطوي.

3-الحارث المحاسبي (ق 3هـ)، كتاب التوهم حلب، دار الوعي.

4-العبدري رحلة العبدري، المسماة الرحلة المغربية- الرباط- المغرب- جامعة محمد الخامس، سلسلة الرحالات 4، حجازية، ط1، 1968.

5-عبود عبده، الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، مطبعة المدينة، سوريا، 1997- 1998.

6-محمود العبدري البلنسي- الرحلة المغربية- أحمد بن جدّو- مطبعة البعث- تنشر كلية الآداب الجزائرية قسنطينة ط1.

7-هيكل حسين، حياة محمد، ط:13/، مكتبة النهضة المصرية 1968.

المراجع العربية:

1-أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، 1830-1855- المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د، ط) 1989.

2-أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير (باي الغرب الجزائري) إلى الجنوب الصحراوي الجزائري- القاهرة، مصر، عالم الكتب، ط1، 1969.

3-بن قينة (عمر) الخطاب القومي، للثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1999.

4-حسن محمود حسين- أدب الرحلة عند العرب- الهيئة العامة للكتاب- القاهرة، 1968.

5-حسين العودات- صورة العرب لدى الآخر في ضوء العلاقات التاريخية، بيروت- مجلة الحياة 14 يونيو 2014.

6-شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي- التجنس- آليات الكتابة خطاب المتخيل، ط1، 2006- رؤية للنشر والتوزيع.

7-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي ج2، ط1، دار المعارف، القاهرة، د، ت.

8-عاطف جودة- نصر، الخبال "مفهوماته ووظائفه"، مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1984.

9- ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق- سوريا، 2000.

10- محمد حالمي في الخطاب الرحلي- مقالة منشورة إلكترونيا.

11- محمد حسين (زكي): الرحالة في العصور الوسطى- دار الرائد العربي، بيروت، 1981.

12- محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار الشروق، القاهرة، د ط، 1994.

13- نوال عبد الرحمان الشوابكة- الرحلات الأندلسية والغربية حتى نهاية القرن 9هـ، دار المأمون للنشر والتوزيع- عمان- طبعة 2008.

14- يوسف بكار خليل الشيخ، الأدب المقارن، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات بالتعاون جامعة القدس المفتوحة، القاهرة، مصر 2009.

الرسائل الجامعية:

1- أمينة سوغلان، صورة الجزائر في الأدب الفرنسي "غي دي موباسان وألبير كامو، رسالة ماجيستير مخطوطة، إشراف عبد القادر بوزيدة، جامعة الجزائر 2009-2009.

2-حفناوي بعلي أثر الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2004، ص 124.

3-شيماء جابر، أهم كتب الرحالة والمستشرقين الغربيين 18/ 05. 2016.

4-عثمان بلميلود، صورة أولاد نايل في الأدب الفرنسي 1830-1930، أطروحة دكتوراه مخطوطة، الآداب- جامعة وهران- الجزائر 2008.

5-معربي هوارية- صورة العربي بين فرانس كاف وألبير كامو، رسالة ماجيستير مخطوطة، الأخضر بن عبد الله، كلية الآداب والفنون جامعة وهران. الجزائر 2003.

6-هبة كمال سعد- الخط العربي في كتابات الرحالة الغربيين، مجلة علي عفيفي، علي غازي، 5 سبتمبر 2017- العدد 240.

المعاجم والقواميس:

1-ابن فارس (أحمد) مقاييس اللغة- المجلد الثاني، دار الجبل- بيروت، د- ت.

2-ابن منظور (دار العرب- ج11- دار صقر- بيروت، ط3، 1994.

3-سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، 1984.

4-الفيروز أبادي، القاموس المحيط- ج- 3، دار الإحياء للكتب العربية- بيروت، ط1، 1985.

5-مجدي وهبة، معجم المصطلحات الأدب- مكتبة لبنان- بيروت- ط1، 1974.

المراجع المترجمة:

1-دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة: غسان السيد اتحاد الكتاب العرب، دمشق د، ط.

2-ريمون طحان، الأدب المقارن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1972.

3-كارل سميث، أدب السفر عند هنري جيمس وأثره في فنه ضمن مجلة الثقافة الأجنبية، محور أدب الرحلات، بغداد، العراق، السنة9، العدد 3- 1989، ص 90 ترجمة يؤئيل يوسف عزيز.

4-كراتشكوفسكي (أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدين عثمان، هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1987.

5-ناجي عويجان، تطور صورة الشرق في الأدب الانجليزي، ترجمة تالا صباغ، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

فهرس المحتويات

الموضوع **الصفحة**

إهداء

شكر

مقدمة .....أ- د

مدخل 5-14

1-الصورة 5-10

2-نشأتها 10-12

3- أنواعها.....12-14

الفصل الأول: المصطلح، الأدب والرحلة

1. الرحلة لغة 16-17

2. الرحلة اصطلاحا 17-18

3. مفهوم أدب الرحلة 19-21

4. نشأة أدب الرحلة عند العرب 22-25

5. أنواع الرحلات 25-36

الفصل الثاني: صورة العربي في مرآة الآخر

1- صورة العرب لدى الآخر.....41-46

2-الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان.....47-53

3- الحركات الاستشراقية.....54-56

الفصل الثالث: صورة العرب عند الرحالة الفرنسيين

1- الإسلام في كتابات الرحالة الفرنسيين 58-72

2- رحلة أوجين دولاكرو إلى المغرب 73-77

3- الجزائر في أدبيات الرحالة الإنجليز 77-81

- خاتمة 83-85

- **المصادر والمراجع**